نبيل فاروق

السِّتار الأَسْوَد

الكتاب الثالث

مجموعة قصصية

فريق متميزون
E-BOOK

مبارك للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لسلسة

الستار الأسود

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة الستار الأسود المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

من روائع د. نبيل فاروق

سلسلة الستار الأسود

(الكتاب الثالث)

عالمنا الذي نعرفه محدود..

ليس بحدوده، ولكن بحدود قدراتنا نحن..

محدود، بما نعرفه عنه..

وغير محدود، بما نكشفه من أسراره وخباياه في كل يوم..

بل في كل لحظة..

عالمنا نراه بأعيننا، ونتعامل معه بحواسنا ومعارفنا..

وعلى الرغم من كل ما نعرفه، مازالت معارفنا عنه محدودة..

فما نراه ونسمعه ونلمسه، ليس كل عالمنا..

هناك ستار، يفصل بين ما نعرفه الآن، وما سوف حتما نعرفه غدا..

ودعونا نبذل محاولة محدودة للعبور خلف ذلك الستار، الذي يحجب عنا الكثير والكثير من أسرار وخبايا عالمنا..

الستار الأسود.

د. نبيل فاروق

مجنون..

عجيب هو هذا الرجل..

أعوام طويلة التقى به، في جلسات العلاج، ومازال يحيا حالة الوهم، التي تصور له أنه ليس مريضًا..

هنا في مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، هذا ليس بالأمر العجيب..

الكل يتصور نفسه شخصًا آخر، بخلاف هويته الحقيقية..

في عنبر ثلاثة، رجل يصر على أنه الرئيس..

وفي عنبر خمسة، لدينا نابليون بونابرت...

وهناك خالد بن الوليد..

وصلاح الدين الأيوبي..

وحتى سفاح (كرموز)..

ولكن هذا الرجل بالذات يختلف..

يختلف كثيرًا..

" كيف حالك اليوم؟!

ألقي على السؤال، وهو يبتسم ابتسامة هادئة، جعلتني أدرك أنه مازال داخل حالة التقمص، فأجبته في مودة:

- في خير حال.. وأنت؟!

أشار بيده إشارة مبهمة، واسترخي في مقعده:

- أنا أفضل استطعت تقبل وفاة زوجتي، وأتعامل مع ابني وابنتي على نحو طبيعي.

مسكين هو..

صدمة مقتل زوجته زلزلت كيانه..

إنه يتظاهر بالتماسك، ولكنني أعلم أنه منهار داخليًا

أخشى ما أخشاه أن ينهار احتماله فجأة، فيتحول إلى حالة العنف..

لو حدث هذا، سأضطر إلى نقله إلى عنبر الخطرين..

أو إرساله إلى حيث يحصل على صدمة كهربية..

في بعض الأحيان يفلح هذا..

في بعض الأحيان فحسب..

"القضية تم قيدها ضد مجهول..".

قالها، وهو مازال يحاول الاسترخاء في مقعده..

هل ضايقك هذا؟!..

سألته في حذر، فلوح بذراعه كلها، مغمغمًا:

- وماذا بيدي لأفعله؟!

لم تعجبني إجابته، ولا الطريقة اللامبالية، التي نطقها بها، فمِلت نحوه، أسأله:

- أين كنت، عندما قتلت زوجتك!

صمت بضع لحظات:

- كنت أقضي السهرة مع بعض الأصدقاء.

سألته، وأنا أتفحص وجهه جيدا:

- وهل يمكنهم الشهادة بهذا؟!

تطلع إلى لحظات، ثم اعتدل في مقعده:

- بالتأكيد.

من الواضح أنه يخفي شيئًا، ولهذا سألته:

- كيف لقيت زوجتك مصرعها؟!

عاد يتطلع إلى لحظات، قبل أن يجيب، في توتر ملحوظ:

- لقد أخبرتك من قبل.

تمسكت بالهدوء، وأنا أسأله:

- هل يضيرك أن تخبرني مرة أخرى؟!

بدا مترددًا، فقلت أستحثه:

- مع تفاصيل أكثر هذه المرة.

لم يبد مرتاحًا، وهو يفكر طويلًا، قبل أن يعتدل، قائلًا:

- تعلم أن سارقًا فاجأها وحدها.

قلت أستحثه:

- ثم؟!

بدا عصبيًا، وهو يجيب:

- ثم طعنها ست عشرة طعنة.

تراجعت في مقعدى:

- كان لديه الوقت الكافي إذن؟!

مط شفتيه، وهز كتفيه، وهو يجيب:

- لست أعتقد هذا.

ويبدو أن لهجتي كانت قاسية بعض الشئ، أو أنها حملت نبرة عدوانية، وأنا أقول:

- قلت إنها ست عشرة طعنة.

زفر زفرة متوترة، وهز رأسه، وهو ينهض قائلًا:

- يبدو أن فكرة علاج الحوار الودي المتبادل، لم تكن مناسبة هذه المرة.

أشرت إليه بمعاودة الجلوس:

- بل أراها فكرة رائعة.

تردد بضع لحظات، ثم عاود الجلوس، وهو يغمغم في عصبية:

- دعنا لا نتحدث عن حالة زوجتي إذن.

وافقته بإيماءة من رأسي، على الرغم من الفضول الذي يلتهمني؛ لمعرفة صلته بمصرع زوجته.

إنه يخفي شيئا..

حتما يخفي شيئًا..

"ماذا عنك أنت؟!.."..

ألقى سؤاله على في اهتمام، فهززت كتفي، مجيبًا:

- ماذا عنى؟!

سأل في شبه لهفة:

- هل أنت متزوج؟!

فكرت لحظات، قبل أن أجيب:

- لست أظن هذا.

تراجع في مقعده، وهو يسأل دون دهشة:

- تظن؟!

أشرت بيدي مجيبًا:

- لقد فرت مع طفلي منذ زمن.

سألني:

- وهل طلقتها بعد فرارها؟!

صمت لحظة مفكرًا، ثم هززت رأسي في بطء:

- كلا.

لم ترق لي ابتسامته، وهو يقول:

- هي مازالت زوجتك إذن.

ضايقتني العبارة، فأشحت بوجهي في توتر:

- من الناحية النظرية.. نعم.

سألني في اهتمام:

- وابنك.. هل رأيته بعدها؟!

بدأت أشعر بالضيق لأسئلته، إلا أنني أجبت، في شيء من الغلظة:

- كلا..

لمحت شبح ابتسامة على شفتيه، وهو يقول:

- ضايقك هذا كثيرًا.. أليس كذلك؟!

أجبت دون مواربة:

- نعم.

قلتها في حدة واضحة، فتراجع في مقعده، واستغرق في التفكير بضع لحظات، قبل أن يبتسم ابتسامة زائفة، قائلًا:

- يبدو أن جلسات الأحاديث الودية هذه مجدية.

غمغمت بغير حماس:

- أعتقد هذا.

راجعت في ذهني ما أعرفه، عن جلسات العلاج الودية..

المريض يجلس مع الطبيب، وكأنهما صديقان التقيا في مقهى يتحدثان..

يتجادلان..

أو حتى يتشاجران..

وعلى الطبيب أن يكون يقظًا واعيًا، لكل فعل أو كلمة..

هذا لأنه يقوم بتحليل المريض، من خلال هذه الجلسات..

وعلاجه أيضًا.

المهم أن يسأل دومًا السؤال المناسب...

وفي الوقت المناسب..

"هل أحببت طفولتك؟..."..

ألقيت عليه السؤال بغتة، فبدت عليه الدهشة لحظة، قبل أن يشرد ببصره، وكأنه يستعيد ذكرى قديمة:

- أبي كان قاسيًا بعض الشئ.

سألته في اهتمام:

- وماذا عن أمك؟!

بدا من الواضح أن الذكريات تؤلمه هذه المرة، وهو يغمغم:

- لقد تركتنا وأنا في الثانية.

سألته:

- ماتت.

حاول أن يبتسم ابتسامة مضطربة، وهو يهز رأسه، قبل أن يجيب، في مرارة لم يستطع حجبها:

- طلقها أبي، وتزوجت من رجل آخر.

سألته، وقد تضاعف اهتمامي:

- وهل رأيتها منذ ذلك الحين؟!

زفر في مرارة، قبل أن يغمغم:

- مرتين فحسب.

لقد أصبت الهدف..

إنه يكره أمه..

هذا ما دفعه إلى قتل زوجته..

جلسات العلاج الودية هذه مدهشة بحق..

لقد توصلت بوساطتها إلى الحقيقة، التي عجز الكل عن كشفها.

دعنا نتحدث عنك قليلا..

قالها في توتر، وكأنه يسعى للفرار من حصار أسئلتي، فاعتدلت قائلًا:

- سل ما بدا لك.

مسح شعره بيده، وهو يسأل:

- متى عرفت أين تقيم زوجتك؟!

ندت منى حركة عصبية مع سؤاله، وقلت في حدة:

- وماذا يعنيك من هذا؟!

ابتسم وهو يهز كتفيه، مجيبًا:

- أنت سألتني أسئلة شخصية، وأجبت.

كان على حق، مما جعلني أبتلع توتري، قائلًا:

- علمت منذ ستة أسابيع تقريبا.

قال في هدوء:

- وذهبت لزيارتها؟!

قلت في عصبية:

- كان يجب أن أرى ابني.

بدا أكثر هدوءًا، وهو يقول:

- ولكنها رفضت أن تربك إياه.

هتفت في حدة:

- تلك الحقيرة.. إنه ابني أيضًا، وليس ابنها وحدها.

تنهد، وقال في حسم:

- لهذا طعنتها حتى الموت؟!

اتسعت عيناي عن آخرهما.

طعنتها؟!..

من قال هذا؟!..

من؟!..

انتهت الجلسة.. أعيدوه إلى عنبره الانفرادي..

قالها، ونهض لينصرف، وجاء اثنين من الممرضين الأقوياء، كما يحدث في كل مرة..

كم سئمت هذا وكرهته.

إنه، وهم جميعًا يصرون على أنني المريض، وأنه هو الطبيب..

ولقد تجاهلوني تمامًا، وأنا أحاول أن أنبههم إلى خطأهم، بينما يجرونني جرا إلى العنبر الذي أقيم فيه..

عنبر المجانين..

الخطرين.

حلم..

هذا حلم..

حتمًا إنه حلم..

ففي عالم الأحلام، تختل كل موازين الكون، وقوانين الفيزياء..

في الحلم يمكنك أن تطير..

وأن تسير على الماء..

يمكنك أن تكون امبراطورا..

أو حتى عبدا..

وعلى خلاف الواقع، كل شيء ممكن، في عالم الأحلام..

وما أمر به حتمًا حلم..

أنا أسير في طريق طويل..

طويل..

طويل بلا نهاية..

الشمس فوق رأسي تشرق قوية..

ولكن الظلام يسود..

ظلام عجيب، لا يتناسب إطلاقًا، مع قرص الشمس فوق الرءوس..

وهناك آخرون..

أشعر بهم، ولكنني لا أراهم..

أسمع خطواتهم..

أرصد أنينهم..

أشعر بأنفاسهم..

يسيرون من حولي..

أمامي وخلفي..

إلى يميني ويساري..

وأنا وسطهم أسير..

ترى هل نتجه جميعا لهدف واحد؟ ...

وما هو؟!..

أهو حقا حلم؟!

كل شيء من حولي يقول إنه كذلك..

ضوء الشمس، مع الظلام الدامس، لا يقترنان إلا في حلم..

أو في عالم آخر..

رباه!!... أهذا ممكن؟!..

أأنا أذكر حتى كيف كانت البداية..

لقد تشاجرت مع زوجتي، وخرجت لأدخن سيجارة في الحديقة..

لم تكن سيجارة عادية..

كانت سيجارة مخدرة..

كنت أدخنها في سرعة وعصبية، عندما سطع ذلك الشئ..

وبعدها لا أذكر شيئًا.

كل ما أعيه، هو أنني وجدت نفسي هنا..

في هذا العالم العجيب..

أهو أمر مما يحدث في أفلام الخيال العلمي؟!..

هل اختطفني شيء؟!..

مخلوقات من عالم آخر مثلا؟!..

أهذا هو عالمهم، الذي ينقلون إليه من يختطفونهم من عالمنا؟!..

ولو افترضنا هذا، فما الذي سيفعلونه بنا جميعًا؟!

هل سيشرحون أجسادنا؛ لمعرفة تركيبنا؟!

أم سيحتفظون بنا في أقفاص؟!..

أم في صناديق زجاجية..

أم أن هذ مجرد خيال جامح مريض؟!

إنه حلم..

حتمًا هو حلم..

لقد لاحت بقعة ضوء، في نهاية ذلك الممر الطويل..

بقعة صغيرة، ولكنها حملت الأمل...

هناك إذن مخرج ما من هذا..

مخرج لي..

ولهم..

لكل تلك الأجساد، التي انعكس عليها شريط الضوء الضئيل، فبدأت أتبين ملامحها..

رباه!.. إنها ليست بشرية..

أو ليست ذات ملامح..

مجرد ظلال بلا تفاصيل..

بلا وجوه..

إنهم أشبه برسم كروكي لجسد بشرى..

ماذا هم؟!..

أشباح؟ ...

أرواح؟!..

جن؟!..

كائنات أخرى؟!..

ماذا هم؟!..

لم يلتفت إلى أحدهم، وكلنا نسير نحو بقعة الضوء، وكأننا مغيبون..

أو مسيرون..

حاولت أن أتوقف..

أن أغير اتجاهي..

أن أعود أدراجي..

حاولت..

وحاولت..

وحاولت..

ولكن جسدي لم يستجب..

كان وكأنه جسد شخص آخر..

رفعت يدي إلى وجهي؛ للتيقن من أنها يدي..

وحدقت فيها في ذهول..

أشعر تمامًا أنني رفعتها..

وأشعر بها أمام وجهي..

وأنظر إليها..

ولكنها ليست يدي..

إنها مثلهم..

رسم كروكي ليد!!..

ماذا أصابني؟!..

ومتى؟!..

لا... إنه حلم..

أو هي هلوسة..

نعم.. نعم.. إنها هلوسة..

تلك السيجارة، المحشوة بالمخدرات، هي السبب..

لقد دخنتها في سرعة وعصبية..

وحتمًا انقضَّ دخانها الأزرق على عقلي، دون سابق إنذار..

واختلّ العقل..

ودخل في حالة هلوسة..

نعم.. نعم.. هي حالة هلوسة..

أراهن أنني الآن نائم في فراشي، وشخيري يزعج زوجتي كالمعتاد..

أو أنني ملقى في الحديقة، وزوجتي الغاضبة لا تدرك هذا..

هذا هو الأرجح..

ذلك الوميض كان بداية الغيبوبة...

غيبوبة المخدر...

لا ريب في أن تناوله في سرعة وعصبية له تأثير ضار..

ضار جدا..

تفسير منطقي ومقنع..

ولكنه لا يفسر وضوح الرؤية، بعد أن اقتربنا كلنا من دائرة ضوء مبهر.

دائرة تبدو وكأنها تنادينا..

تنادي أعماق أعماق عقولنا..

تخاطبنا في هدوء ناعم..

تدعونا للاقتراب أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وبلا دعوة، كنا كلنا نتجه إليها..

مسيرون..

مغيبون..

أهذه هلوسة؟!..

أم هو حلم؟!..

أم..؟!

ارتجف بدني كله، وأنا أفكر في الاحتمال الأخير..

احتمال الموت..

أأنا ميت؟!

أهذا هو البرزخ، الذي يتحدثون عنه، والذي يفصل الحياة عن الموت؟!

أهذا هو؟!..

يا إلهيا.. لم أكن مستعدًا لهذا..

لقد أسرفت على نفسي كثيرًا في حياتي..

والموت هو آخر ما فكرت فيه..

لو أنني ميت، فهذا يعني أن كل من حولي ليسوا أجسادًا..

بل أرواح..

وكلنا نسير نحو النهاية..

نحو الحساب..

والثواب..

والعقاب..

ارتجفت للفكرة..

وارتجفت..

وارتجفت..

الشمس فوق الرءوس..

والظلام دامس..

وبقعة الضوء تكبر وتتعاظم، وتزدادا تألقًا..

ونحن نقترب منها..

تقترب في سرعة..

ومن حولي صاروا يلتصقون بي، ويدفعونني نحو الضوء، وكأنهم يتعجلون الوصول إليه..

حاولت مقاومتهم، ولكن عبثًا..

دفعوني بقوة أكبر..

وأكبر..

واقتربت دائرة الضوء، حتى صرنا على حافتها..

ونظرت أسفلها..

وارتعبت..

كانت هناك حفرة هائلة من النار..

حفرة رهيبة..

مخيفة..

ملتهبة..

وصرخت حتى لا يدفعونني نحوها..

ولكنهم دفعوني..

وسقطت..

هويت نحو حفرة النار الرهيبة، وأنا أصرخ وأصرخ..

مستحيل... إنه.. إنه..

"حلم.."..

نطقها الطبيب في أسف، قبل أن يعتدل مكملًا:

- كابوس، هاجمه خلال نومه، وأصابه بأزمة قلبية، أودت بحياته..

بدت الزوجة ملتاعة مذعورة، وهي تسأله:

- حلم؟!.. أمن الممكن أن يموت المرء بسبب حلم؟!

أومأ برأسه إيجابا:

- نعم.. في أحلامنا نسقط، ونكاد نهلك، ولكن عقلنا الباطن يوقظنا في اللحظة الأخيرة، قبل أن نرتطم بالأرض.

سألته منهارة:

- ولماذا لم يوقظه؟!

أجاب في أسف، وهو يضع الغطاء على وجه الجثة:

- قلتِ إنك شاهدته يدخن سيجارة مخدرات في الحديقة، قبل أن يفقد الوعي.. المخدرات جعلت ردود أفعاله بطيئة، حتى أن عقله الباطن لم يوقظه في الوقت المناسب؛ فأكمل سقطته.

غمغمت باكية في انهيار:

- في الحلم.

وانهمرت دموعها على وجهها غزيرة، كنهر ينساب..

في حلم.

دبيب..

التقط نفسا عميقا، وهو يترك جسده يسقط على مقعد قريب، ويلهث على نحو عجيب..

لقد قتلها..

قتل زوجته..

أخيرا فعلها..

لقد خطط لهذا طويلًا، منذ قرر أنه لم يعد يحتمل إزعاجها المستمر، وشجاراتها التي لا تنقطع..

عام كامل، وهو يخطط، لهذا..

في البداية أقنعها بالانتقال، من الحي الذي يقيمون فيه، إلى تلك المدينة الجديدة، على أطراف (القاهرة)..

وفي منزلهما الجديد، الذي اختاره في طرف المدينة الجديدة، بدأ الحفر..

في حديقة منزلهما الخلفية، التي تطل على منطقة مهجورة، صنع حفرة طولها مترين، وعرضها متر، وعمقها أربعة أمتار..

وعندما سألته هي عما يفعله، أقنعها بأنه ينشئ لها حوض سباحة خاص، وأوصاها ألا تخبر أحدًا، حتى تصير مفاجأة للكل..

ولأنها تعشق التباهي، احتفظت بالأمر سرا..

الشيء الوحيد الذي أزعجه، خلال عملية الحفر هو النمل..

نمل كبير ضخم، يملأ التربة في كل مكان، وكأنه يستوطن تلك المدينة الجديدة، من قبل بنائها..

ولقد حاول كثيرًا التخلص من النمل، ولدغاته المؤلمة..

استخدم مبيدات حشرية، وسوائل حارقة، وحتى البنزين، الذي سكبه في الحفرة، ثم أشعل فيه النار..

وكان النمل يختفي في كل مرة..

ثم يعاود الظهور بعد أيام قليلة..

وفي النهاية سأم القتال، وقرر فقط أن يكتفى بارتداء زي واق من النمل..

مهندس الزراعة بالمدينة أخبره أنه نوع من النمل الأبيض، المقاوم للمبيدات العادية، ووعده بإحضار مبيد خاص..

ولكنه لم يفعل..

وهو لم يسأله..

لم يرد جذب الانتباه للحفرة، التي ستستقر فيها زوجته إلى الأبد..

وطوال ذلك العام، شكي لكل من يعرفهم من أن زوجته لم تعد تحبه، وأنه يشك في علاقتها بأخر..

وبعد عدة أشهر، بدأ يشكو من أنها تهدد بتركه، والفرار مع ذلك الآخر..

ومع تكرار القصة، صدق الناس..

وتعاطفوا معه..

وأشفقوا عليه..

وعندئذ أدرك أن ساعة التنفيذ قد حانت..

وفي تلك الليلة، وبينما كانت تُعِّد طعام العشاء، فاجأها بكيس من النايلون على رأسها، أمسكه في إحكام، وهو يبعد جسده عنها، متفاديًا أظفارها وركلاتها، حتى همدت أنفاسها وخمدت..

كان واثقًا من أنها قد لفظت أنفاسها الأخيرة، وعلى الرغم من هذا، ظل يقبض على الكيس في قوة، حتى أيقن من استحالة بقائها على قيد الحياة..

كانت ملامحها داخل الكيس بشعة مقززة، مع لسانها المتدلي خارج فمها، وعينيها المتسعتين في ألم ورعب..

وبيد مرتجفة، أفلت الكيس وكومه، وألقاه في سلة البقايا..

ثم جلس يلهث..

الخطوة الأساسية تمت..

قتلها..

وبقيت الخطوة الحتمية..

دفنها..

وبعد أن يدفنها في الحفرة الخلفية، ويصب القار على جسدها، ضمانًا لعدم تسرب روائح تحلل جثتها، سيهيل عليها التراب، ويستحم جيدا، وينتظر حتى يهدأ، ثم يجري اتصالاته بالجميع..

أهلها..

أقاربها..

زملائها..

أصدقاءها..

سيسأل الكل عنها في ارتياع، موحيًا بأنه يبحث عنها كالمجنون..

ولا بأس من بعض النحيب..

والدموع..

والبكاء..

حتى هذا تدرب عليه طويلًا..

خطته محكمة، لا تقبل الفشل..

حتى الحفرة، ابتاع عدة لفات من حشائش الأرض، ليفردها فوق ساحة الحديقة الخلفية كلها، وينثر بها بعض الورود، بحيث لا يخطر ببال أحد أن يبحث عن جثتها أسفلها..

كل شيء مخطط بدقة..

بمنتهى منتهى الدقة..

لم يترك تفصيلة واحدة، مهما بلغت دقتها..

ظل جالسًا في مقعده، حتى هدأت أنفاسه، ثم قام، فأحضر كيسًا ضخمًا، أعده مسبقًا..

كيس قوى سميك..

ولساعة كاملة، وضع جثة زوجته في ذلك الكيس، وأحكم إغلاقه، بعد أن وضع داخله كمية كبيرة، من كرات النفتالين، ضمانًا لعدم تسرب الروائح..

وبعدها جلس يرتاح بعض الوقت، ويرتب أفكاره..

ووفقًا للخطة، خرج يفرد لفات الحشائش على أرض الحديقة الخلفية، ويوزع الورود والزهور في الأطراف، تاركًا موضع الحفرة فقط..

لابد من أن ينهي كل شيء في سرعة بعد دفنها..

وضع وعاء القطران تحت النار، بالقرب من الحفرة، وحمل جثة زوجته، وألقاها في الحفرة، وألقى عليها نظرة شامتة أخيرة..

الآن لم يعد باستطاعتها أن تزعجه..

ولا أن تتشاجر معه..

صوتها المرتفع لن يصدع رأسه مرة أخرى..

لقد أخرسها..

وإلى الأبد..

شعر بلدغة في ساقه، وهو يقف على طرف الحفرة، ورأى نملة كبيرة، تسير على ثنية بنطاله، فنطرها بعيدًا في ازدراء..

يا لهذا النمل السخيف..

ليس هذا وقته..

على الإطلاق..

لاحظ سربًا منه يسير، عند طرف الحفرة، وواتته فكرة سادية، جعلته يعود ويحضر قليل من الكحول، سكبه على سرب النمل، ثم أشعله..

وفي استمتاع، شاهد النمل يحترق..

اليوم بالذات لا شيء سينتصر عليه..

لا زوجته..

ولا النمل..

احترق النمل عن آخره في لحظات، فالتمعت عيناه في ظفر، وبدأ في تسخين القار، في ذلك الوعاء الكبير، حتى سال وصار أشبه ببحيرة سوداء مظلمة، فأمال الوعاء، على نحو تدرب عليه مسبقًا، وسكب القار والقطران على جثة زوجته، حتى غطاها تمامًا..

وعلى طرف الحفرة، وقف يشاهد نتيجة عمله في إعجاب..

الخطة متقنة بحق..

الجريمة الكاملة..

الجريمة التي ادَّعوا أنها مستحيلة..

وعلى الرغم منه، انفلتت من بين شفتيه ضحكة عالية..

ضحكة ظافرة..

واثقة..

مجلجلة..

قوية..

وعند طرف الحفرة، وبينما مازال يحمل جاروف الحفر بيسراه، لوَّح بقبضته اليمني في الهواء..

الآن صار حرًّا..

تحرر من زوجته..

من إزعاجها..

من شجاراتها..

من السجن الذي وضعته فيه..

الآن استعاد حريته، و..

اختل توازنه فجأة، عندما انهارت حافة الحفرة تحت قدميه..

وهوى..

حاول أن يتشبث بشيء..

أي شيء..

ولكن في منتصف حديقة خالية، لا يوجد ما تتشبث به..

اللهم إلا وعاء القار الساخن..

وبحركة غريزية، أمسك به، ولكن حرارة الوعاء أجبرته أن يفلته..

واكتمل سقوطه..

وارتطم بالقار في القاع..

وبتناغم عجيب، سقط جاروف الحفر على رأسه، وارتطم به في قوة، في نفس اللحظة التي شعر فيها بسخونة شديدة على ساقيه، و..

وفقد الوعي..

لم يدر كم بقي فاقد الوعي، ولكنها ليست فترة طويلة حتمًا؛ لأن الظلام مازال يخيم على المنطقة، والصمت يغلفها تماما..

إنه عارض صغير إذن..

سيخرج من الحفرة، ويواصل الخطة..

ولكن مهلا..

إنه عاجز عن تحريك ذراعه اليمنى وساقيه..

ماذا حدث؟!..

هل أصيب بشيء ما؟!..

حاول أن يرفع رأسه، ويميل ببصره، ليدرك ماذا حدث؟!

يا للهول!..

لقد سقط فوق القار، الذي لم يجف بعد، وتشبثه بالوعاء فقلبه، وسكب ما تبقى فيه من قار على ساقيه..

لقد التصق بالقار، الذي سكبه فوق جثة زوجته..

هذا الجزء لم يكن في الخطة..

والاحتمال لم يجل بخاطره قط..

ولكن مازال هناك أمل..

ذراعه اليسرى حرة..

وكذلك الجاروف..

إنه يستطيع استخدام حافته، لتخليص ساقيه وذراعه اليمنى..

إنها مسألة وقت فحسب..

خطأ كهذا لن يفسد خطته المُحكمة..

ولكن ما هذه الآلام، في كل مكان في جسده..

لدغات عديدة مؤلمة..

هنا فقط، اتسعت عيناه عن آخرهما، بكل رعب الدنيا..

الجزء المنهار، من حافة الحفرة، كشف خلية هائلة لذلك النمل الأبيض العملاق..

وجسده كله مغطى به..

آلاف النمل على جسده، يلدغه بلا رحمة..

بل يلتهمه التهامًا..

حاول تخليص ذراعه اليمنى، أو استخدام جاروف الحفر، لدفع النمل عن جسده..

ولكن هيهات..

أعداد النمل راحت تتزايد وتتزايد، ولدغاتهم صارت أشبه بأنياب صغيرة، تنهش في كل جزء من جسده..

وصرخ..

صرخ مستنجدا..

صرخ.. وصرخ.. وصرخ..

ولكن خطته كانت محكمة تمامًا..

من المستحيل أن يسمعه أحد، في طرف المدينة الجديدة، وفي مواجهة المنطقة المهجورة..

وعلى كل جسده، شعر بدبيب النمل..

وراحت الأنياب الدقيقة تنهش جسده، وهو يواصل صراخه..

ثم، ومع مطلع الفجر، توقفت صرخاته تمامًا..

ومع الظهر، كانت جمجمته البيضاء تلتمع، تحت أشعة الشمس، وأسراب هائلة من النمل تكمل تنظيف باقي هيكله العظمى..

وبمنتهى الإتقان.

ومن الحب..

"جن؟!.."..

نطقها الشيخ (حسن) في دهشة، وهو يحدق في وجه المهندس (صفوت)، الجالس أمامه في ذلك المسجد الصغير..

"أي سؤال هذا يا ولدى؟!.."

حملت العبارة كل دهشة الشيخ واستنكاره، فازدرد (صفوت) لعابه في صعوبة، قبل أن يقول في اضطراب:

- أليسوا مذكورين في القرآن يا مولاى؟!

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا، وهو يقول في حذر:

- هذا صحيح يا ولدى، ولكن ليس كل ما نعجز عن تفسيره هو جن.

بدا (صفوت) أكثر توترًا، وهو يقول:

- ولكنني اختبرت هذا بنفسي يا سيدنا.. اتخذت كل الاحتياطات الممكنة، وتيقنت من أن التفسير الوحيد المتبقي هو الجن.

ربت الشيخ (حسن) على كفه مهدئًا، وحاول أن يبتسم مطمئنًا، وهو يقول:

- اهدأ يا ولدي، وقص على كل شيء من البداية.

تراجع المهندس (صفوت)، والتقط نفسًا عميقًا، قبل أن يقول في اضطراب واضح:

- كل شيء بدأ من أسبوعين فحسب.. عندما كنت نائمًا ذات ليلة..

"استيقظ.."

تسلل الصوت الناعم الهامس إلى أذنيه، وهو مستغرق في النوم، وبدا أشبه بلمحة من حلم جميل..

ولكن تلك اللمسة أيقظته..

لمسة رقيقة من أنامل أنثوية صغيرة، على كف يده..

لمسة حقيقية، جعلته يفتح عينيه الناعستين في بطء، لتطالعه تلك الابتسامة الساحرة، لأنثى لم ير في مثل جمالها من قبل..

لوهلة، تصور أنه يواصل الحلم، ثم لم يلبث أن أدرك أنه مستيقظ، فوثب جالسا على نحو عجيب، وجف حلقه، وهو يهتف:

- من أنت؟!.. وكيف دخلت إلى هنا؟!

لم تجب الفتاة، ولكن ابتسامتها ازدادت سحرًا وعذوبة، وهي تتطلع إليه في وله:

- كم أنت وسيم.

دفع جسده إلى الخلف مبتعدا عنها، وهو يكرر صارخًا:

- من أنتِ؟!

جلست كالنسمة على طرف فراشه، وبدأ صوتها وكأنه قادم من الجنة، وهي تقول:

- لا تخاف مني ولا تخشاني.. لا يمكنني أن أؤذيك.

هتف بصوت مختنق:

- كيف دخلتِ هنا؟!.. أنا أغلق الأبواب والنوافذ جيدًا قبل نومي!!

تابعت، وكأنها لم تسمعه:

- لأنني أحبك.

الكلمة الأخيرة جعلته يحدق فيها ذاهلًا، وقلبه يخفق في عنف..

يا لها من فاتنة!!

إنها أجمل فتاة وقعت عليها عيناه، منذ وعى الدنيا..

كتلة من الجمال والرقة والحسن والسحر والعذوبة..

وعلى الرغم منه، رق صوته، وهو يغمغم:

- هل التقينا من قبل؟!.

همست في رقة وعذوبة:

- ليس على نحو مباشر.

ثم مالت نحوه:

- ولكنني أحبك منذ زمن.

غمغم، وقد خلب سحرها لبه:

- وكيف؟!

ابتسمت هامسة:

- أراقبك منذ زمن.. أراك ولا تراني.. أحبك وإن لم تلتق بي قط.

حاول أن يستوعب الأمر، ودار ببصره على الباب والنوافذ المغلقة، قبل أن يهز رأسه، مغمغمًا:

- أنت جزء من حلمي.. حلم جميل.. سأستيقظ منه في الصباح.

مالت نحوه أكثر، وانحنت تطبع قبلة دافئة على خده، هامسة:

- أنا لست حلمًا.. أنا حقيقة..

واستيقظ منتفضًا..

رباه.. لقد كان حلما..

كان حلما جميلا..

"لا عيب في الأحلام، ولا إثم فيها يا ولدى.."

قالها الشيخ (حسن)، محاولا سحب بعض توتره، فهز (صفوت) رأسه نفيًا في قوة، وهو يقول:

- الأحلام لا تترك هذا يا سيدنا.

قالها في عصبية، وهو ينزع ما بدا أنه ضمادة صغيرة، على خده الأيسر، فاتسعت عينا الشيخ (حسن) في دهشة!!..

كان هناك أثر واضح لشفتين أنثويتين، بلون وردي ناعم..

"استخدمت كل وسيلة ممكنة لمحوها، ولم يُجدِ أي منها..".

قالها (صفوت) في يأس، فمد الشيخ (حسن) يده يتحسسها، قبل أن يغمغم:

- تبدو وكأنها محفورة على خدك.

غمغم (صفوت) في مرارة:

- إنها كذلك.. شيء أشبه بالوشم، الذي تستحيل إزالته.

تراجع الشيخ (حسن) بكل الدهشة، وغمغم:

- لم نسمع أن جنية قد فعلت هذا.

تمتم (صفوت)، في صوت أقرب إلى البكاء:

- لقد فعلت ما هو أكثر من هذا.

سأله الشيخ (حسن) في لهفة:

- مثل ماذا؟!

زفر (صفوت) في مرارة، ورفع عينيه في شرود، وكأنما يستعيد ذكرى مؤلمة، ثم أجاب:

- في اليوم التالي، أغلقت الباب والنوافذ بأقفال مزدوجة، وفحصت كل شبر في حجرتي، ثم أويت إلى فراشي بعينين نصف مغمضتين، و..

"أنا هنا.."..

أتي الصوت من خلفه رقيقا ناعما، فانتفض جسده في عنف، واستدار إلى مصدره..

واتسعت عيناه عن آخرهما..

كانت اليوم أكثر سحرًا وجمالًا وعذوبة..

ابتسامتها عقدت لسانه في حلقه، وهي تتقدم منه في هدوء ونعومة:

- هل افتقدتني؟!

ارتجف صوته مع جسده:

- ماذا أنت؟!

ابتسمت:

- مخلوق في هذا الكون.. ربما أختلف عنك في التكوين، ولكنني مثلك.. مخلوق.

تمتم مشيرا إليها:

- وهذا السحر والجمال.

اتسعت ابتسامتها الساحرة:

- كل بنى جنسي كذلك.. ما يبدو جمالًا ساحرًا عند بني جنسكم، هو الهيئة الطبيعية لبني جنسنا.

غمغم متراجعا عنها:

- الأساطير تقول: إن حوريات البحر كن جميلات ساحرات.

هزت رأسها بابتسامة هادئة، فاستدرك:

- وكن متوحشات قاسيات.

تطلعت إليه لحظة، قبل أن تسأله في رقة بالغة:

- وهل أبدو لك كذلك؟!

نظر إلى جمالها الساحر الفتَّان لحظات، قبل أن يهز رأسه نفيًا:

- كلا.

ازداد قربها منه، فسألها متراجعًا:

- ماذا تريدين مني؟!

واصلت قربها:

- أخبرتك أنني أحبك.

كرر، وقد التصق ظهره بجدار الحجرة:

- نعم، ولكن ماذا تريدين منى؟!

واصلت قربها..

وواصلت..

وواصلت..

"الزواج؟!.."

هتف الشيخ (حسن) بالكلمة في استنكار، فنظر إليه (صفوت) في دهشة، مغمغمًا في عصبية:

- لماذا افترضت هذا؟!

أجابه الشيخ (حسن) في انفعال:

- هذا ما يحدث عادة؟!

ثم استدرك، في صرامة محذرة:

- ولكن زواج الإنس بالجن حرام.

غمغم (صفوت) في يأس:

- أعلم هذا.

ثم تابع منهارا:

- ولكنها تزورني كل ليلة.. أكاد أجن يا مولانا..

صمت الشيخ (حسن) لحظات يتأمله، ثم مال نحوه، يسأله في تعاطف:

- وماذا يمكنني أن أفعله من أجلك يا ولدي؟!

تشبث (صفوت) بيده، هاتفًا في ضراعة:

- ساعدني على صرفها يا مولانا.. بارك منزلي.. اتل فيه آيات القرآن.. اقرأ بعض الأوردة.. ولكن خلصني منها.

تردد الشيخ (حسن):

- ولكنني لم أختبر هذه الأمور أبدأ يا ولدى.

تشبث به (صفوت) أكثر:

- هي فرصة لتختبرها إذن.. ساعدني يا مولانا.. أرجوك.. أكاد أجن.. أرجوك.

تردد الشيخ طويلًا، ولكن سرعان ما غلبه فضوله، واستحثته دموع (صفوت) وضراعاته، فنمتم:

- فليكن.. متى تحب أن نفعل هذا؟!

هتف (صفوت) بكل اللهفة:

- الليلة.. أرجوك.

ووافق الشيخ..

وفي منتصف الليل، دخل مع (صفوت) إلى منزل هذا الأخير، وإلى حجرة نومه بالتحديد، وجلس ينتظر..

"هل ستظهر؟!.."..

تساءل الشيخ في قلق، فقال (صفوت) في ارتياح:

- إنها تفعل دومًا.

غمغم الشيخ قلقًا:

- ربما أن وجودي..

قاطعه صوت ناعم من خلفه، يكمل:

- سيشجعني أكثر على الحضور.

التفت بدهشة مذعورة إلى مصدر الصوت، ووقع بصره عليها..

صورة مجسمة للجمال والفتنة والسحر..

"يسعدني أنك قد أتيت بإرادتك.."

أسرع الشيخ يفتح حقيبته، دون أن يرفع عينيه عن وجهها، وهو يقول:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ابتسمت قائلة:

- أنا مخلوق مثلك يا رجل.. ولكن لى طبيعة مختلفة.

مع آخر قولها، تبدلت ملامحها، من الفتنة الساحرة، إلى البشاعة الهائلة، وبرزت في فمها أنياب طويلة حادة، جعلت الشيخ يتراجع صارخا:

- العياذ بالله.

وانقضت هي..

وأشاح (صفوت) بوجهه في ألم..

"كل أسبوع عليك أن تحضر لى مثله.. نحن نحبكم كثيرًا"..

قالتها في شراسة مخيفة، بعد أن انتهت من التهام ضحيتها، ومسح شفتيها بلسانها الطويل، المشقوق من المنتصف، فغمغم (صفوت) في مرارة:

- قلتِ: إنها مرة واحدة.

صرخت فيه:

- نسيت أن أضيف كلمة (أسبوعيًا)..

ثم مالت نحوه، وألصقت خده بلسانها البشع، مستطردة في وحشية:

- إن لم تفعل، لن يكون أمامي سوى التهامك أنت.

كاد يبكي من القهر، ولكنها اعتدلت مكملة:

- أخبرتك أنني مخلوق مثلكم، ولكن الفارق بيننا وبينكم هو أنكم.. طعامنا.

وانطلقت من حلقها ضحكة وحشية قاسية رهيبة..

ضحكة مخلوق وحشي يحب..

طعم البشر.

أمل..

الكل في حالة وحشية تماما..

الكل يطاردني بصرخات مجنونة مسعورة..

وأنا أعدو بكل قوتي..

وسهامهم تمرق من حولي..

الكل يريد جسدي..

وليس لقتلى..

ولكن لالتهامي..

إنه موقف لم يخطر لي، حتى في أبشع كوابيسي..

أكلة لحوم البشر يطاردونني..

صرخاتهم تثير الهلع في كياني، وتدفعني للجري كالمجنون، فرارًا بحياتي..

وفي ذهني ذلك المشهد الرهيب، الذي وقع عليه بصري عندهم..

مشهد ضحية بشرية، يمزقونها حية، ويوزعون لحمها فيما بينهم، ويلتهمونه في نهم وحشي مقزز..

كان هذا قبل أن يكشفوا وجودي..

ويستديرون بأعينهم وأنيابهم ووحشيتهم ونهمهم نحوي..

لحظة واحدة، حدقوا خلالها في، قبل ان تلتمع عيونهم، وينطلقون نحوي مباشرة، وهم يطلقون صرخاتهم الوحشية..

وبكل قوتي جريت..

وجريت..

وجريت..

ولكن كل هذا انتهى عند تلك الحافة..

حافة جرف عال مرتفع، يطل على شلال قصير، ونهر كبير..

نهر يمتلئ بالتماسيح الهائلة، التي رفعت عيونها وفكوكها نحوي، على أمل أن أقفز..

لم يعد هناك أمل..

سيتم التهامي في كل الأحوال..

إما بأنياب التماسيح..

أو بأنياب أكلة لحوم البشر..

ومن خلفي سمعت صرخاتهم تتوقف..

واستدرت أواجههم..

جيش من أكلة لحوم البشر، بوجوههم الشاحبة، وأنيابهم الطويلة القذرة، التي مازالت بقايا ضحيتهم السابقة عالقة بها..

ما من أمل..

ولابد لي أن أختار..

التماسيح..

أو أكلة لحوم البشر..

وانقض الجيش على، وهو يطلق صرخاته، و..

فجأة، وجدت نفسي في معملي مرة أخرى..

أقف أمام آلة الزمن، التي أنهيت صنعها على التو..

وعلى بعد خطوات يقف مساعدي..

"هناك خطأ في الحسابات.."

للمرة الألف، سمعت العبارة نفسها..

"لو انطلقت الآلة الآن، ستدخل في دوائر مغلقة.."

أردت أن أقول شيئًا..

أي شيء..

ولكنه، وكما يحدث في كل مرة، نطقها في نفس اللحظة، التي جذبت فيها ذراع آلة الزمن..

ووجدت نفسي أنطلق ثانية..

شعرت بجسدي ينسحب، عبر ممر أضواء مختلفة، كما حدث في المرات السابقة..

ثم سقط جسدي فجأة، وسط تلك الغابة القديمة..

فصائل النباتات من حولي، أخبرتني أنني قد عدت آلاف السنين إلى الماضي..

حاولت ألا أتحرك هذه المرة، ولكنني وجدت نفسي أسير في نفس المسار، الذي سرت فيه في المرة السابقة..

أسير حتى تلك الأكمة من الأغصان، حيث أرى ما يحدث..

كان هناك شخص آخر، يرتدي ما يوحي بأنه قد أتى من زمني بوسيلة ما..

وكانوا يجذبونه بلا رحمة..

كان ظهره في مواجهتي، ولكن صرخاته الرهيبة كانت تنقل لي مدى عذابه..

ومن حوله، راح أولئك الوحوش يرقصون..

ثم أشعلوا النار تحت قدميه..

صرخاته كانت رهيبة، بمقدار عذابه..

ثم انقضوا عليه، وراحوا يمزقون قطعًا من لحمه، ويوزعونها على بعضهم البعض، ويلتهمونها، والدماء تسيل منها على وجوههم..

أبشع مشهد شاهدته، في حياتي كلها..

وعلى الرغم من معرفتي ما سيحدث، ضغطت ذلك الغصن الجاف بقدمي، فتحطم على نحو مسموع..

والتفتوا إلى..

وكان ما كان..

ومرة جديدة، وجدت نفسي في معملي..

"هناك خطأ في الحسابات.."..

وجذبت ذراع آلة الزمن، مع عبارة مساعدي..

وبدأ العذاب مرة أخرى..

ولكن لا..

لن أستسلم لدائرة العذاب هذه..

هناك حتما وسيلة للخروج منها..

هناك حتمًا امل..

في هذه المرة استنفرت كل إرادتي، حتى لا أكرر خطواتي السابقة..

لم أسر نحوهم مباشرة..

درت في اتجاه مختلف..

نجحت في تغيير مسار الأحداث..

ولكن مهلا.. لقد درت دورة قصيرة، ثم وجدت نفسي في المكان ذاته، أشاهد العذاب الهائل لضحيتهم..

وأصريت ألا أرفع قدمي..

وألا أطأ ذلك الغصن الجاف..

ولكنهم، وعلى الرغم من أنني لم أفعل، انتبهوا لوجودي..

والتفتوا إلى..

وعدت أجرى بكل الرعب..

وها هي ذي اللحظة الرهيبة تتكرر..

هم..

أو التماسيح..

"هناك خطأ في الحسابات.."..

قالها مساعدي، فحاولت ألا أجذب ذراع آلة الزمن..

ولكنني فعلت..

وانسحب جسدي عبر نفق الأضواء الذي سئمته..

وها أنذا هناك..

في ذلك العصر القديم..

عذاب الضحية يفوق كل تصور..

تخيل نفسك تلتهم حيًا، والنيران تشوى قدميك..

لكن صرخات الضحية تبدو لي مألوفة..

وزيه كذلك..

أهو مساعدي، حاول استخدام آلة الزمن لإنقاذي، فسقط ضحية لهم؟!..

يا للمسكين!..

كنت أكثر حرصًا في هذه المرة، تحركت بخفة..

نجحت في كسر قانون الزمن هذه المرة..

ولكن الضحية فعل شيئًا ما، جعلهم يلتفتون إلى..

وعدت أجرى وهم يطاردونني..

ووصلت إلى الخيار الرهيب..

"هناك خطأ في الحسابات..".

عدت أجذب ذراع آلة الزمن، وقد وضعت في ذهني خطة هذه المرة..

المشكلة هي أنني، وفي كل مرة، أجرى نحو الحافة، حيث يقتصر الخيار على أنياب التماسيح، أو أكلة لحوم البشر..

هذه المرة، إذا شعروا بوجودي، سأستنفر أقصى إرادتي، وأجرى في الاتجاه العكسي..

هنا سيكمن الأمل..

أي أمل..

كان المجهود رهيبًا، ولكنني نجحت في تغيير خط السير، على نحو ملحوظ..

صحيح أنني وصلت إلى نفس النقطة، حيث يعذبون ويأكلون ضحيتهم، ولكن من زاوية مختلفة تمامًا..

من هناك، حاولت رؤية وجه الضحية..

ولكنه كان مغطى تمامًا بالدم..

وكان بعض أكلة لحوم البشر يلعقون الدم عنه، في استمتاع حيواني مقزز..

كنت أتمنى أن أملك وسيلة لتخليصه من عذابه..

ولكن كيف؟!..

كيف؟!..

وبينما يمزقون لحمه، ويشعلون النار تحت قدميه، التفت نصف التفاتة، وصرخ وكأن هذا أمله الأخير..

- أرجوك.. اقتلني.

صرخته جعلتهم يلتفتون إلى..

ثم انقضوا..

بذلت جهدًا خرافيًا، لاستنفار آخر قطرة من إرادتي..

واستدرت إلى الناحية العكسية..

وجريت..

لقد انتصرت..

غيرت المسار، وانطلقت بعيدا عن نهر التماسيح..

وبكل قوتي رحت أجرى، وهم خلفي يصرخون صرخاتهم الوحشية..

ولكن أين يمكن أن يقودني هذا؟!..

إلى أي مصير..

كانت الغابة متشابكة الأغصان، ولكنني رحت أجرى..

وأجرى..

وأجرى..

ثم فجأة، وجدت نفسي أمام ثلاثة متوحشين، أطلق أحدهم صرخة رهيبة..

ثم هوى على رأسي بسلاح حجري قديم..

وسقطت فاقد الوعي..

لم أدر كم فقدت الوعي، ولكنني وعندما استيقظت، كان وجهي مغطى بالدم، وكانوا يجذبونني نحو مذبحهم..

قيدوني إلى المذبح، وأنا أصرخ..

وأشعلوا النار تحت قدمي..

رباه!.. لقد كنت أنا..

أنا الضحية التي رأيتها تواجه أبشع عذاب في الكون..

وهذا يعني أنني هناك أراقب ما يحدث..

لهذا بدا لي كل شيء مألوفًا..

لم يكن مساعدي الذي يعذب هذا العذاب الرهيب..

لقد كنت أنا..

وبينما يمزقون قطعًا حية من لحم جسدي، ويأكلونها في شراهة، صرخت:

- أرجوك.. اقتلني.

ولكن العذاب استمر.

وبلا أمل.

عين..

اليوم بدأ هادئًا، على الرغم من كل المشكلات القديمة..

زوجها لم يتشاجر معها كعادته؛ لأن الإفطار تأخر..

ولم يسب أبيها وأمها، وهو يغادر إلى عمله..

وصاحبة المنزل لم تلح في طلب الأجرة كالمعتاد..

وحتى شقيقة زوجها، لم تلق كلمتين سخيفتين، وهي تمر بها كعادتها..

ولهذا فقد التقطت نفسًا عميقًا، بعد انصراف زوجها، وقررت أن تحصل على إجازة من الأعمال المنزلية، أيا كانت النتائج..

لن تنهض لتنظيف المنزل..

أو طهي الطعام..

أو كي ثياب زوجها..

أو حتى تنظيم دولابه..

اليوم إجازة، ستقضيها نائمة، حتى ولو ثار زوجها وهاج وماج عند عودته من العمل..

لم يعد هذا يهم..

لقد اعتادته..

استلقت في فراشها، وأسبلت جفنيها، وراحت تحلم بأنها تحيا في عالم وهمي بلا منغصات..

عالم ليس فيه زوجها..

أو شقيقته..

أو حتى صاحبة المنزل..

لم تسرح بأفكارها طويلًا، وقد غلبها النوم العميق..

ونامت..

صرخة قوية، جعلتها تقفز من فراشها مذعورة، وتعدو نحو باب الشقة، لترى ماذا حدث؟!..

وهالها كل الهرج والمرج على سلم البني..

العشرات يعدون مسرعين، ويتجاوزونها بوجوه شاحبة، في طريقهم إلى أعلى..

استوقفت أحدهم، تهتف به في ارتياع:

- ماذا حدث؟!

أجابها في توتر كبير:

- الست (نعيمة).. صاحبة المنزل.

ضربت صدرها براحتها، هاتفة:

- هل ماتت.

صاح وهو يتجاوزها:

- مقتولة.. عثروا عليها مقتولة.

انكمشت في فراشها ترتجف، والهرج والمرج يتزايدان على السلم..

صاحبة المنزل مقتولة؟!..

من قتلها؟!..

ولماذا؟!..

ظلت تطرح السؤال على نفسها، حتى عاد زوجها من عمله، فسألته مرتجفة:

- من قتل الست (نعيمة)؟!

زفر مجيبا:

- شخص يكرهها، وينتقم منها.

أدهشها الجواب، فتساءلت خائفة:

- ولماذا لا يكون مجرد سارق عادى.

لوح بكفه، قائلا:

- السارق لا يفعل هذا.

سألته وقلبها يخفق:

- لا يفعل ماذا؟!

ألقى عليها نظرة ازدراء لغبائها، قبل أن يشيح بوجهه، مجيبًا:

- ترك النقود كما هي، وأخذ...

لم يتم قوله، فانقبض قلبها، وهي تسأله:

- أخذ ماذا؟!

صمت لحظات، وكأنه يستصعب الأمر، قبل أن يجيب في امتعاض واضح:

- أخذ عينها اليسرى.

تراجعت مصعوقة:

- عينها؟!

لوح بذراعه كلها هذه المرة، وهو يجيب:

- لم يعثروا عليها أبدًا.

ارتجف جسدها كله رعبًا..

اقتلع عينها؟!..

إنه شخص ينتقم حتمًا..

شخص يكرهها أشد الكره..

كانت تشعر برعب شديد، خفف منه أن ما حدث أبعد ذهن زوجها عن تقاعسها عن أعمالها المعتادة اليوم..

لقد اكتفى ببقايا طعام أمس، وأوى إلى فراشه، وكأنه يأمل أن ينقذه النوم من التفكير فيما حدث..

أما هي، فلم تنم..

ظلت تفكر في العين..

العين التي اقتلعها القاتل..

ولكن، وعلى الرغم من ذعرها، لم يكد الفجر ينبلج، حتى استغرقت في النوم..

وكان حلما مفزعا..

كان كابوسًا رهيبا..

كابوس رأت فيه زوجها يقيد الست (نعيمة)، وشقيقته تخنقها..

ثم تقتلع عينها في تشفٍّ..

وهبت من فراشها صارخة..

ولم يرحم زوجها انتفاضتها ودموعها، وإنما راح يلعنها ويسبها؛ لأنها أيقظته بصرخاتها من نومه..

روت له ما رأته في حلمها، فانزعج في شدة، وصفعها على وجهها، وكأنها مسئولة عن أحلامها..

وحذرها من أن تروى حلمها لأحد..

ولم تفهم..

ولكنها في الصباح نفسه، وعندما أتت لتضع الإفطار على المائدة، وجدته يجرى حديثا هامسا عبر الهاتف المحمول..

وعندما كان يغسل كفيه عقب الإفطار، التقطت هاتفه خلسة، وألقت نظرة على آخر اتصال..

كانت شقيقته..

ترى فيم كان يتهامس معها؟!..

هل كان يروى لها الحلم؟!..

أم يحذرها منه..

ومنها..

وإلى قلبها، تسلل رعب شديد..

ترى هل كان ما رأته حلما..

أم رؤيا؟!..

هل قتل زوجها وشقيقته صاحبة المنزل بالفعل؟!..

ولكن لو أنهما فعلا، فلماذا اقتلعا العين؟!..

ماذا؟!..

ملأ الرعب نفسها، وشعرت أنها لن تتحمل البقاء مع زوجها في بيت واحد بعد الآن..

ماذا لو قتلها وهي نائمة؟!..

وماذا لو اقتلع عينها..

صرخت في أعماقها، وشعرت برأسها يدور..

ويدور..

ثم سقطت فاقدة الوعي..

وعندما استعادت وعيها، كان الهرج والمرج أكبر من ذي قبل..

وكان زوجها يصرخ ويبكي..

وتضاعف رعبها ألف مرة..

بل ألف ألف مرة..

وعندما عرفت سر حالة الهرج الجديدة، مع مقدم الشرطة والإسعاف، شعرت أن قلبها قد هوى بين قدميها، وداسته بلا وعي، فتمزق وتفتت..

إنها شقيقة زوجها هذه المرة..

وبنفس الوسيلة..

مخنوقة..

واقتلع القاتل عينها اليسرى..

اتسعت عيناها عن آخرهما في رعب..

لماذا العين؟!..

لماذا؟!..

لم تستطع طرح السؤال على زوجها، مع تحقيقات الشرطة، التي شملت الحي كله..

حتى هي وزوجها، حققت معهما الشرطة..

زوجها كان يتظاهر بالانهيار..

وهي أخفت شكوكها في أعماقها..

وعندما عادا معًا إلى منزلهما، لم تشر إلى الأمر، من قريب أو بعيد.

وزوجها كذلك لم يفعل..

ولكن أعصابه المتوترة جعلته أكثر شراسة وعنفًا..

كان يسبها ويلعنها، ويسب والديها، على أتفه الأسباب..

وتحقيقات الشرطة استغرقت أسبوعين كاملين..

وكل الصحف أشارت إلى ما حدث..

فكرة اقتلاع عين الضحية، شغلت الرأي العام كله..

لم يفهم أحد لماذا؟!..

خبراء الجريمة قالوا إنها دليل على الانتقام..

وخبراء علم النفس أكدوا أن القاتل يريد تذكارًا لجريمته..

وهي لم تفهم هذا أو ذاك..

كل ما فهمته هو أن حياتها مع زوجها، صارت جحيمًا، أشد هولا مما سبق..

حتى كانت تلك الليلة..

سبها.. ولعنها..

وضربها أيضًا..

وبعدها نام كالبهيمة، بعد أن عاشرها على الرغم منها..

في تلك الليلة، عاودها الحلم نفسه..

ولكن مع تعديل بسيط..

زوجها كان يقيد شقيقته ويخنقها، والست (نعيمة) تقتلع عينيها..

وهبت من فراشها، وهي تكتم صرختها هذه المرة..

كتمتها لحظة واحدة، ثم أطلقتها مدوية بعد هذا..

فإلى جوارها كان يرقد زوجها باردًا، ونصف وجهه الأيسر مغطى بالدم..

الطب الشرعي أثبت أنه مات مخنوقًا.

وأن القاتل قد اقتلع عينه اليسرى..

والأدلة الجنائية وجدت شباك حجرة النوم مكسورًا..

ولكن ما من أثار أخرى..

أما هي فقد أصابتها صدمة نفسية رهيبة، جعلتها أشبه بالمجنونة، حتى أنه تم احتجازها لثلاثة أشهر، في مستشفى الأمراض النفسية والعصبية..

التحقيقات استغرقت شهرًا كاملًا، ثم انتهت بقيد الجرائم ضد مجهول..

وعندما عادت إلى منزلها، راح الكل يواسيها، ويعاملها بشفقة وتعاطف وهي حزينة وشاردة منكسرة..

ولكن سرعان ما شعرت في منزلها بحالة جديدة..

بالحرية..

القاتل المجهول خلصها من كل منغصات حياتها..

صاحبة المنزل..

وزوجها..

وشقيقته..

وفي المصحة علمت بأنه يمكن للمرء ارتكاب جريمة بشعة، دون حتى أن يدرك..

هذا لأن عقله الباطن يحركه عندئذ، وليس عقله الواعي..

نهضت تعد طعام الغداء لنفسها، وفتحت باب المبرد، والتقطت من صندوق الثلج كيسا يحوي دجاجة صغيرة، وقبل أن تغلق بابه، ابتسمت وهي تنظر إلى ذلك الكيس خلفه..

كيس يحوي ثلاث عيون..

بشرية.

المسخوط..

أخبروه عنه، منذ اليوم الأول، الذي تسلم فيه عمله، في تلك القرية النائية في أقاصي الصعيد..

المسخوط..

لا أحد في القرية كلها، يعلم من أين جاء..

ولا إلى أي مكان ينتمي..

البعض يقول: إنه يجوب البلاد، منذ استطاع السير..

والبعض الآخر يؤكد أنه اختار هذا المكان، منذ مولده..

اختلفوا في تاريخ ظهوره في القرية..

وفي سبب اختياره لها..

ولكنهم اتفقوا على أمر واحد..

كراماته..

الكل يروى في حماس، حكايات يستحيل أن يصدقها مثله، ممن نشأوا وترعرعوا في (القاهرة).

يروون كيف ذهب إليه الحاج (عبد الظاهر) مشلولًا، وخرج من عنده يسير على قدميه!!..

كانت حكاية تقليدية، تروى عن كل المحتالين، من هذا الطراز..

لولا أمر واحد..

فالحاج (عبد الظاهر) رجل تعرفه القرية كلها، وتعرف بأمر شلله، منذ أكثر من عشر سنوات، عندما سقط عن جزاره الزراعي..

يستحيل إذن أن يتآمر مع المسخوط..

ولا أن يدعى سيره على قدميه..

ولو صحت هذه القصة، فسيعني هذا أنه هناك سر ما، وراء ذلك المسخوط..

ما يصفونه به وحده، يستحق التوقف طويل..

فالكل يصفه بأنه قصير القامة، في حجم شاب في بداية فترة المراهقة..

له رأس ضخم..

وأطراف نحيلة رفيعة..

ولكن أطرافه تنتهي كلها بستة أصابع في كل طرف، وليس خمسة، مثل كل البشر..

وهو لا يلتقي بأكثر ممن ينعم عليهم ببركته..

وحدهم يدخل حجرته، في كوخه الصغير، الذي بناه ملاصقا للجبل..

وهو لا يتقاضى أجرًا على الإطلاق..

لا نقود سائلة..

أو حتى منقولات..

البعض حاول أن يعطيه دجاجا، أو دقيقا، أو زيتا، أو حتى كيسًا من الشاي أو السكر..

ولكنه رفض تماما..

وعلى الرغم من أنه لا يغادر كوخه الصغير أبدأ، فهو لم يطلب طعامًا قط!!

وهذا - في رأيه- أعجب ما في القصة..

فكل كائن حي يحتاج إلى طعام..

أي طعام!..

روايات خرافية، تفوق حكاية الحاج (عبد الظاهر)، الذي عاد للسير على قدميه، بعد ساعة واحدة، قضاها وحده مع المسخوط....

"هناك ما هو أعجب من هذا..

قالها زميله (هاني) في حماس، فالتفت إليه، وهو ينهي عمل اليوم الممل:

- مثل ماذا؟!.. هل ستخبرني أنه أعاد البصر إلى أعمى؟ ...

هز رأسه نفيا في قوة:

- بل أعاد إلى (حسين) ذراعه.

حدق فيه ذاهلا، قبل أن يهتف في حنق:

- هل تسخر منى؟!

أجاب مخلصًا

- سل أي مخلوق في القرية عن هذا... (حسنين) فقد ذراعه منذ سبعة أعوام، في محلج القرية.. وذهب لزيارة المسخوط؛ لكي يجد له عملًا أفضل وفوجئ به الكل يخرج من عنده بذراعين.

تساءل في حذر:

- هل منحه ذراعًا صناعية؟!

هز رأسه على نحو أقوى:

- بل نبت له ذراع جديدة.

شمله ذهول تام، وهو يحدق في زميله..

هذا مستحيل!!..

ذراع مقطوعة، لا يمكن أن تنبت مرة ثانية..

حتى الأبحاث الطبية الحديثة، التي تتصور إمكانية هذا، عبر استخدام الخلايا الجذعية، مع تعاملات تكنولوجية خاصة، يستحيل أن تقول: إن هذا يمكن أن يحدث في ساعة واحدة..

"أريد رؤية ذلك المسخوط...".

قالها في حماس، فالتفت إليه (هاني):

لأي سبب؟!.. إنه يرفض اعتباره طفرة شاذة، يذهب الكل لرؤيتها..

قال في اهتمام:

- أريده أن ينقلني إلى (القاهرة).

صمت (هاني) لحظات، ثم هز كتفيه، قائلًا:

- بالنسبة إليه، هذا سبب تافه.

قال في إصرار:

- ولكنه سبب.

واصل (هاني) صمته بضع لحظات أخرى، قبل أن يقول:

- فليكن.. سأبلغ (علوان).

تساءل في قلق:

- من (علوان) هذا!؟!

أجابه بابتسامة باهتة:

- تستطيع أن تقول إنه مدير أعماله..

تصور أن (هاني) سيكتفى بهذا القول، إلا أنه استدرك في سرعة:

- على الرغم من أنه لم يلتق به سوى مرة واحدة.

غمغم في دهشة:

- ولماذا هو إذن؟!

حاول (هاني) أن يبتسم، وهو يجيب:

- إنه أول من داواه.. كان أحد قطاع الطرق قد سرقه، وقطع لسانه منذ طفولته.

هتف مرتجفًا من الدهشة:

- لا تقل لي: إن المسخوط أنبت له لسانًا..

أومأ برأسه إيجابا:

- هذا ما حدث.

وتضاعف فضوله، مع لهفته لمقابلة ذلك المسخوط..

ألف مرة..

وعندما أخبره (هاني) أن (علوان) سيأخذه للمسخوط غدا، شعر بجسده كله يرتجف..

إذن فهو سيلتقي به..

والأهم أن المسخوط وافق أن يلتقي به..

سهر لوقت طويل، ينزل برامجا جديدة على هاتفة؛ لتسجيل ذلك اللقاء، دون أن يشعر المسخوط بهذا..

إنه يريد وثيقة عما سيحدث..

لا يدري لماذا..

ولكنه يريد هذا..

وفي الصباح، طرق (علوان) باب استراحة البنك، فأسرع يفتحه، وهو يسأله:

- الآن؟!

أجابه (علوان) في برود:

- نعم.. الآن.

سار مع (علوان) لمسافة طويلة..

طويلة جدا..

أكثر من ساعة كاملة، يسيران وسط حقول القصب، حي خرجا إلى ساحة واسعة، عند سفح الجبل مباشرة، وفي نهايتها ذلك الكوخ الصغير، الملاصق للجبل تمامًا..

"انتظر.."..

قالها (علوان) بنفس البرود، قبل أن يدخل إلى الكوخ، دون أن يطرق بابه..

وبقي هو وحده ينتظر، ويتأمل المكان من حوله في توتر..

يا له من مكان مقفر مخيف!!..

ترى لماذا اختاره المسخوط لسكناه؟!..

لماذا؟!..

"هيا.."..

قالها (علوان) بنفس البرود، وهو يفتح له باب الكوخ، فدق قلبه في قوة، وازدرد لعابه في صعوبة، وزفر في حرارة..

ودخل...

أغلق (علوان) الباب خلفه فور دخوله، فارتجف جسده، مع الظلام الدامس، الذي أحاط به..

"أين أنت؟!..

هتف بها في عصبية، وهو يتلفت حوله، محاولًا اختراق حجب الظلام ببصره، قبل أن يأتيه صوت حاد رفيع صارم:

- أنا هنا.

استدار في سرعة إلى مصدر الصوت، في نفس اللحظة، التي غمر فيها ضوء أخضر عجيب الكوخ كله..

وانتفض جسده في قوة..

فعلى ذلك الضوء، رأه يجلس أمامه..

المسخوط..

تمامًا كما وصفوه..

جسد ضئيل..

رأس ضخم..

وأطراف غاية في النحول..

والأهم.. العينان..

عينان واسعتان كبيرتان، يبدوان وكأنهما يخترقان كيانك كله..

"لماذا أتيت؟!.."..

ألقى المسخوط سؤاله، بصوته الحاد الرفيع، فازدرد هو لعابه في صعوبة،

وهو يجيب:

- أريد الانتقال إلى (القاهرة).

صمت المسخوط، لحظات، قبل أن يجيب:

- أو أي مكان آخر.

غمغم متوترًا:

- المهم ألا أبقى هنا.

قال المسخوط في حسم وثقة:

- أضمن لك هذا.

هل يعني حقا ما يقول؟!..

هل يمكنه أن يضمن له الذهاب من هنا؟..

هل؟!..

مد المسخوط كفه الصغير، وفرده أمامه، فظهرت في وسطه كرة من الكريستال الأحمر، وقال بصوته الحاد الرفيع:

- استنشق هذه.

تردد لحظة، وهو يتساءل: ما معنى هذا؟!

لماذا يريد منه أن يستنشق كرة من الكريستال الأحمر؟!..

راودته فكرة الرفض لحظة، ثم نبذها في سرعة..

مع كل العجائب التي يروونها عنه، ماذا يضير لو نفذ مطلبه؟!..

لن يخسر شيئًا، في كل الأحوال..

انحنى في حذر، واستنشق تلك الكرة الكريستالية الحمراء، وبدت له رائحتها قوية نفاذة، و..

وفجأة.. استيقظ..

وبكل ذهول الدنيا، حدق في ذلك الواقف أمامه..

لم يكن المسخوط..

ولا حتى (علوان)..

بل كان هو..

كائن بشري، هو نسخة طبق الأصل منه، يرتدي ملابسه، التي انتبه إلى أنه قد تجرد منها..

"ماذا فعلت بي؟!.. من أنت؟!.."

التفت إلى شبيهي، وهو يقول بابتسامة غير مريحة:

- أنا أنت.. عينة صغيرة من حمضك النووي، مع تكنولوجيتنا، التي تسبق عالمكم بمائة عام على الأقل، حولتني إلى نسخة طبق الأصل منك..

قال ذاهلا ومرتجفا:

- تكنولوجيتكم؟!.. عالمنا؟!.. ماذا تعني؟!

سمع صوت المسخوط من خلفه:

- نعنى أنكم كائنات قوية، ولكنكم أقل تطورًا منا.. ولدينا من التكنولوجيا ما يتيح لنا استنساخكم في أجسادنا.

حاول أن يلتفت إليه، وهو يقول في رعب:

- أهذا ما فعلته، مع كل من جاء إليك؟!

أجاب المسخوط:

- استنسختهم؟!.. نعم.. ونسخهم كانت تحمل جينات مولدهم، وليس ما أصابهم.. فالذي فقد ذراعه، جاءت نسخته مكتملة بذراعين، والذي أصابه الشلل، جاءت نسخته صحيحة معافية.. وحتى من فقد لسانه، جاءت نسخته ناطقة.. الصفات الموروثة فقط تستنسخ، والصفات أو العاهات المكتسبة لا تفعل.

قال مرتجفًا، وهو يشعر بالألم، مع قيود معصميه وقدميه:

- ولكن لماذا؟!.. وماذا تفعلون بالأشخاص الأساسية.

لم يجب المسخوط هذه المرة، وإنما أجاب المستنسخ في هدوء:

- أجسادنا ضعيفة، وأجسادكم قوية.. وربما لهذا يفوق حجم رؤوسنا رءوسكم.. وكنوز كوكبنا تحتاج إلى أيد عاملة قوية لاستخراجها، ووجدنا ضالتنا فيكم.

هتف في يأس:

- سُخرة؟!.. هل قطعتم ملايين السنوات الضوئية؛ للبحث عن عمال سُخرة.

أجابه المسخوط من خلفه:

- ليس للسُخرة فحسب.

مرة أخرى حاول أن يلتفت إليه، ولكنه عجز عن هذا، وسمعه يكمل:

- ألم تسأل نفسك: من أين أحصل على غذائي هنا؟!

ثم برز رأسه امام وجهه فجأة، وهو يفتح فمه، فتظهر أنيابه الشبيهة بأنياب سمك القرش، مع استطرادته:

- إننا نستسيغ طعمكم أيضًا.

صرخ بكل الرعب..

صرخ..

وصرخ..

وصرخ..

ولكن المسخوط وضع تلك الكرة الكريستالية أمام وجهه مرة أخرى..

حاول أن يكتم أنفاسه، ولكنه لم يحتمل هذا طويلا..

واستنشقها..

وبينما يغيب عن الوعي، أدرك أنه ربما لا يستيقظ أبدًا..

وربما يصبح بعد قليل وجبة شهية..

بين أنياب.. المسخوط.

بيت العيلة..

سعل (حسني) مرتين، وهو يدخل بيت العائلة، الريفي القديم لأول مرة، منذ أكثر من عشر سنوات..

بيت كبير، أثاثه قديم، وجدرانه مطلبه بالجير، ومازالت تحمل صور القدامى..

أجداده، وأجداد أبيه وأعمامه..

وطأ التراب الكثيف في حذر، فهتف (عويس) الخفير من خلفه:

- الدار لم يدخلها أحد منذ سنوات يا باشا.

سأله (حسني) في صرامة:

- ولماذا لم يقم أحد بتنظيفه؟!

تردد (عويس) قليلًا، قبل أن يجيب في حذر:

- لم يطلب أحدًا تنظيفه يا باشا.

قال (حسني) في حنق:

- أيستلزم أن يطلب أحدا؟!.. أنت خفير المزرعة منذ عقود، ومعك مفاتيح الدار، فلماذا لم تقم بتنظيف المكان، على نحو دورى؟!

تردد (عويس) مرة أخرى:

- وكيف يا باشا؟!.. لقد طعنت في السن، و..

قاطعه (حسني) في حدة:

- لم أطلب منك تنظيفه بنفسك.

هتف (عويس):

- ومن سيرضي بدخول المكان يا باشا؟!

ثم تراجع في سرعة، مستدركًا

- أعنى أن.. أن..

لم يجد جوابا، فهتف به (حسني) في صرامة:

- أن ماذا؟!..

تلفت (عويس) حوله، وهو يهمس بصوت نافس جسده ارتجافًا:

- الدار مسكونة يا باشا.

حدق فيه (حسني) مستنكرًا:

- ماذا تقول أيها المأفون؟!

أجابه (عويس) مرتجفًا:

- أقول ما يعرفه الكل هنا يا باشا.. الدار مسكونة.. عشرات شاهدوا جنية تسير داخله، حاملة شمعة كبيرة.. الولد (بيومي) تطلع إليها، فالتفتت إليه بعينين تشعان نارًا، فأصابه الجنون، وها هو ذا يسير كالمجذوب، في طرقات القرية.

هز (حسني) رأسه مشفقًا:

- بالكم من سذج بلهاء؛ حتى تصدقوا قصصًا كهذه..

هتف (عويس):

- سَل الكل يا باشا.

لاحظ (حسني)، في هذه اللحظة فقط، أن (عويس) لم يدخل الدار..

كان يقف في شرفته الخارجية فحسب..

"أدخل يا رجل، وانسى هذه الخزعبلات"

هتف بها (حسني) في غضب، ولكن (عويس) ارتجف أكثر، وهو يقول:

- لا تؤاخذني يا باشا، ولكنني لا أستطيع.

ردد (حسني) مستنكرًا:

- لا تستطيع؟!

تابع (عويس)، وكأنه لم يسمعه، وجسده كله يرتجف:

- ولو أنني أملك لك نصحًا؛ لنصحتك بأن تعود إلى (القاهرة)، ولا تدخل الدار.

شعر (حسني) بغضب شديد في أعماقه، وهو يقول في حدة:

- ماذا تقول أيها المأفون؟!.. اتحاول منعي من دخول بيت العائلة.

تراجع (عويس) مصدومًا:

- أنا؟!.. حاشي لله يا سيدي وابن سيدي.. إنما قلتها لأنني أعتبرك بمثابة ابن لي.

قال (حسني) في عناد:

- وأنا سأبيت الليلة في بيت العائلة، وأريدك أن تجد من يقوم بتنظيفه.

امتقع وجه (عويس)، وهو يقول:

- مستحيل يا باشا.. المغرب على الأبواب، والناس هنا تخشى المرور بالدار في ضوء النهار، فما بالك بالليل.

ثم مال نحوه، وبدا صوته أقرب إلى البكاء وهو يضيف:

- أرجوك يا باشا.. لا تقضى ليلتك هنا.

تملك العناد (حسني)، فقال في إصرار:

- بل سأقضي ليلتي هنا.. حتى لو كان البيت مسكونًا بألف شبح وعفريت.

بدا (عويس) وكأنه على وشك البكاء، وهو يقول:

- رعاك الله وحماك يا باشا.. رعاك الله وحماك.

ثم استدار، وابتعد مهرولا، تاركًا (حسني) وحده، يتساءل: ماذا فعل بنفسه..

لقد غلبه عناده، ودفعه إلى الإصرار على أمر، ليس بمقدوره احتماله..

ليس لأنه يخشى الأشباح..

أو حتى يؤمن بها..

ولكن لأن البيت مغمور بالتراب، ولا توجد به كهرباء..

ستكون ليلة طويلة..

طويلة جدًا..

بحث في المكان عن شيء يشعله، حتى عثر على مصباح جاز قديم، كان من حسن حظه ممتلئًا، فقرر إشعاله، مع مغيب الشمس..

وفي صعوبة، استطاع تنظيف فراش جده لنومه..

ومع مغيب الشمس، كان مرهقًا بحق، فأشعل مصباح الجاز على مائدة صغيرة في الحجرة، واستلقي على الفراش، وسرعان ما راح في سبات عميق..

ثم استيقظ فجأة..

استيقظ على وقع أقدام تسير، في الصالة الخارجية..

فتح عينيه، واعتدل على طرف الفراش في حركة سريعة، قبل أن ينعقد حاجباه في شدة..

فهناك، عند حافة باب الحجرة السفلى، كان هناك ضوء يتسرب..

ويتحرك..

ضوء شمعة..

استعاد ما سمعه من (عويس)، فسرت في جسده ارتجافة، وشعر بالبرد يتسلل إلى أطرافه..

ثم انتفض جسده كله في عنف..

فعبر الحافة السفلى للباب، رأى ظلا يقطع الضوء لحظة، ثم يبتعد معه ويخفت..

أهذا معقول؟..

أيمكن أن تكون هذه هي الجنية، التي روى له (عويس) قصتها؟!..

لا.. مستحيل...

إنه لا يؤمن بتلك الخرافات..

هناك حتما تفسير ما..

تفسير منطقى..

أو علمي..

أو ربما هو يحلم..

ربما هو كابوس ما..

قرص نفسه في قوة، فشعر بالألم في وضوح..

لا.. ليس كابوسا.

إنه مستيقظ بحق..

"(حسني).."

انتفض جسده مرة أخرى، عندما سمع ذلك الصوت الأنثوي الناعم يناديه، على نحو أشبه بالهمس..

الصوت ناداه باسمه ممطوطًا ومسحوبًا، وكأنما يأتي من أعماق سحيقة غائرة..

من هناك؟ ...

هتف بها في صوت، أراده قويًا صارمًا، ولكنه، وعلى الرغم منه، خرج من بين شفتيه مرتجفًا خائفًا..

ومرة أخرى، رأى ضوء الشمعة يقترب، ويتسلل من فتحة الباب السفلى..

وسمع اسمه يتردد على نحو أكثر وضوحًا..

وأكثر عمقًا..

ثم مر ذلك الظل..

وكاد قلبه يتوقف، كما توقف الظل أمام الباب..

ومرة ثالثة، تردد اسمه..

وفي هذه المرة، لم ينطق حرفا واحدا..

فقد كان يرتجف..

ويرتجف..

ويرتجف..

مستحيلا..

لا يوجد شيء اسمه عفاريت أو أشباح..

ولكن هناك شيء يقف عند باب الحجرة..

ظل يتحرك في خفة، مع ضوء شمعة، وينادي اسمه..

لماذا...

لماذا اسمه؟!..

هل يدرك ذلك الشبح أنه تحداه؟!..

هل جاء ليخيفه فقط؟ ...

أم لينتقم؟!..

"(حسني)..".

تردد الصوت في عمق كبير، وعلى نحو ممطوط للغاية، فارتجف جسده كله في رعب..

ثم اتسعت عيناه عن آخرهما، وكاد قلبه ينخلع من صدره..

فذلك الشيء في الخارج، يحاول فتح الباب..

الأمر يتجاوز مرحلة التخويف إذن..

ولا فائدة من إنكار الأمر..

لابد له وأن ينجو بحياته، ثم يدرس الأمر فيما بعد.. _

ومن حسن الحظ أنه يقيم في حجرة من حجرات الطابق الأرضي، لها نافذة على الساحة الخارجية..

تردد اسمه مرة جديدة، جعلته يرتجف أكثر، وهو يسير على أطراف أصابعه، نحو النافذة..

التقط مفاتيح سيارته من جيب سترته في حذر، قبل أن يفتح النافذة، محاذرًا أن يصدر صوتًا عاليًا..

ومن خلفه، تحرك رتاج الباب أكثر..

وبكل سرعته فتح النافذة..

ووثب..

ولم يكد يهبط على قدميه، حتى أطلق لساقيه الرياح، وراح يعدو بكل قوته نحو سيارته..

ومن خلفه سمع ذلك الصوت يناديه، ولكنه قفز في سيارته..

وانطلق مبتعدا كالصاروخ..

"لن يعود أبدأ يا باشا.."..

قالها (عويس) في ثقة ظافرة، فابتسم (عبد الجواد)، ذلك الثرى البدين، وهو يقول:

- أنا واثق من هذا.

بدا (عويس) مبهورا، وهو يقول:

- الشائعات التي طلبت سعادتك منى نشرها بالبلد، و(بيومي) الذي حصل على مبلغ ضخم؛ ليلعب دور المخبول، وتلك الحيل التي قمت بها في الدار.. كيف فعلت كل هذا يا باشا؟!

اتسعت ابتسامة (عبد الجواد):

- المال والتكنولوجيا يفعلان المستحيل يا (عويس).

غمغم (عويس):

- ولكنني لست أدرى لماذا تسعى لشراء دار في مكان منعزل، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منها يا باشا..

التقط (عبد الجواد) نفسًا عميقًا، وقال:

- هذا نعم المراد يا (عويس).. ولكن من الصعب عليك أن تفهم.

اغتصب (عويس) ضحكة، وهو يقول:

- (حسني) باشا يروى للكل حكاية الجنية، التي تتجول في الدار بشمعتها، والتي حاولت قتله.. كيف فعلتها يا باشا؟!

حدق فيه (عبد الجواد) بكل دهشته:

- جنية وشمعة؟!.. لم أفعل شيئًا من هذا!.. من أين أتى (حسنى) بهذه الرواية؟!

اتسعت عينا (عويس) عن آخرهما..

"عبد الجوااااد"..

انعقد حاجبا (عبد الجواد) في شدة، مع سماعه اسمه يتردد ممطوطًا، بصوت أنثوي ناعم عميق، وحدق في ذلك الظل، على جدار صالة بيت العائلة..

ظل امرأة تسير وكأنها تسبح في الهواء..

على ضوء شمعة.

قلب حبيبي..

"غدًا عيد الحب"

قالها (عماد) حبيبي في رومانسية شديدة، قبل أن يتحسس شعري في رقة، مستطردا في حنان:

- ماذا تريدين كهدية لعيد الحب؟!

أسندت رأسي على صدره، واستمعت في استمتاع إلى دقات قلبه، قبل أن أهمس:

- أريد شيئًا واحدًا.

سألني بكل الحب:

- مريني يا حبيبتي.

اعتدلت، وأشرت إلى صدره، مجيبة:

- أريد قلبك.

ضمني إليه في حب، وهمس في أذني:

- هولك منذ البداية يا عشق روحي.

مرة أخرى أسندت رأسي إلى صدره؛ لأستمع إلى أحب الأصوات إلى نفسي دقات قلبه..

قلب حبيبي..

عدت إلى منزلي في ذلك اليوم، وأنا أستعيد كلماته في سعادة..

وأستعيد نبضات قلبه..

غدا هو يوم سعدى بالتأكيد..

غدًا عيد الحب..

وغدًا سأخبره بكل شيء..

كل شيء، بلا استثناء..

رقدت في فراشي مبتهجة، أستعيد كل ذكريات عمري..

(عماد) ليس أول حبيب لي..

ولكنهم أفضلهم.

أول حبيب لي كان فارسًا بحق..

شجاع..

قوى..

جريء..

ومقدام..

أحببته بشدة، وقضيت كل وقتي معه..

وكانت أمتع لحظات حياتي هي عندما أسند رأسي إلى صدره..

وأسمع دقات قلبه..

قلب حبيبي..

ثم بعده كان حبيب ثان..

وثالث..

ورابع..

أكثر أحبائي حظًا، لم يمضي معي أكثر من عام..

ولكن غدًا تكمل علاقتي بـ (عماد) عام ونصف..

ألم أقل لكم أنه أفضلهم..

استلقيت في فراشي طويلا، ولكن النوم أبى أن يزور عيني كنت أفكر طوال الوقت..

وانتظر الغد في لهفة..

والدقائق تمر بطيئة..

والساعات لا تمضي أبدأ..

ولهذا نهضت من فراشي، وفتحت دولابي، وأخرجت كل ثيابي، وألقيتها على الفراش؛ لأنتقي منها ثوبا يناسب الغد..

ولكنه لم يعد الغد..

لقد أوشك الفجر أن ينبلج..

ولكنني حتى لا أشعر برغبة في النوم..

فرزت ثيابي ثوبًا بعد الآخر، وارتديت بعضها، وتأملت نفسي فيه، أمام تلك المرأة الطويلة في حجرة نومي..

وأخيرًا، ومع أول ضوء للشروق، استقر أمري على ثوب أحمر، يناسب عيد الحب..

ويناسب قلب حبيبي..

شعرت بالارتياح، عندما حسمت أمري أخيرًا، فخرجت إلى الشرفة، أستنشق هواء الصباح النقي، الذي نادرًا ما يستنشقه المرء في المدن..

امتلأت نفسي بالانتعاش، على الرغم من أنني لم أذق طعم النوم، وشملني حماس شديد، فاتجهت إلى تلك الحجرة الحمراء الخاصة في منزلي، وفتحت دولاب تذكاراتي، ووقفت أتأمل ما فيه في استمتاع..

كل حبيب ارتبطت به، حصلت منه على تذكار..

وأنا أعشق التذكارات..

أعشقها كتذكارات..

وكفكرة..

ترى هل يشاركني (عماد) هذا الشعور؟!..

لم أدر لماذا انتبهت، في هذه اللحظة فقط، انتبهت إلى أنني لا أعرف الكثير عن (عماد)..

عام ونصف، ولم أعرف عنه إلا أقل القليل..

الحديث دومًا يدور عنى..

من النادر أن نتحدث عنه..

وهو لا يتحدث عن نفسه أبدًا..

ولا عن عمله..

كل ما أخبرني به، هو أن عمله يتعلق بنوع من الأبحاث العلمية..

أبحاث الجينات حسبما أذكر..

ولكنه لم يشرح أبداً ما يعنيه هذا..

وحسبما قرأت، فتلك الأبحاث تتعلق بتطوير البشر، عبر إحداث تغييرات نوعية، في جيناتهم الأساسية..

وبالنسبة لي، هذا أمر بشع..

لماذا يسعى الإنسان لتغيير نفسه؟!..

لماذا لا يقبل بذاته كما هي؟!..

حتى لو أنه يعاني من نقائص..

أو عيوب..

أو مشكلات عويصة

فهكذا هو.

فلماذا؟..

لم أكن أميل كثيرًا إلى التعامل مع شبكة الإنترنت، التي صارت أساسًا من أسس الحياة، في هذا الزمن، إلا أنني قمت بالدخول إليها، في محاولة لفهم طبيعة عمل حبيبي..

ولدهشتي، كانت شبكة الإنترنت تحوي ملايين المعلومات عن الأبحاث الجينية، على مستويات عديدة..

ولم أدرِ من أين أبدأ لا..

ثم خطرت ببالي الفكرة..

فكرة ربط البحث عن الأبحاث باسم حبيبي..

باسم (عماد)..

ولقد فعلت..

وبسرعة، وجدت بحثًا قام هو بنشره، منذ أقل من عام..

بحث لم يخبرني به قط..

كان بحثًا علميًا، حول إمكانية تفادي عمليات زرع واستبدال الكلى والكبد والقلب، بالعلاج الجيني المباشر..

والواقع أنه كان بحثا شيقًا للغاية..

ممتاز هو (عماد) هذا..

استعدت صوت دقات قلبه، قبل أن أتخذ قراري..

وعلى الفور، نهضت أتصل به، وما أن سمعت صوته نصف النائم، على الطرف الآخر للخط، حتى همست في نعومة:

- صباح الحب يا حبيبي.

شعرت به وكأنه قد وثب من فراشه، من فرط السعادة، وهو يهتف:

- صباح أجمل حب يا حبيبتي.. حبك.

كدت أسمع صوت دقات قلبه عبر الهاتف، وأنا أقول في رقة:

- ما رأيك لو نحتفل بعيد الحب في منزلي هذا العام؟!

صمت لحظة، تخيلت معها أنه يلهث من فرط المفاجأة والانفعال، قبل أن يقول:

- أتسأليني عن رأيي؟!.. إنه حلم عمري.

قلت بنفس الرقة والنعومة:

- سأعد كل شيء.. وسأنتظرك في الثامنة.

هتف في حب وحماس:

- لن أتأخر ثانية واحدة.

أنهيت الاتصال وأنا أشعر بنشوة عجيبة، لم أشعر بمثلها منذ سنوات..

وبكل همة ونشاط، رحت أعدّ لحفل عيد الحب..

واخترت اللون الأحمر لكل شيء..

فكما أعشق التذكارات، أعشق أكثر اللون الأحمر..

اخترت مفرشًا أحمر اللون للمائدة، ووضعت في الشمعدان شموعًا حمراء، وقضيت نصف اليوم في إعداد كعكة من الفراولة، وضعتها على المائدة، ثم ارتديت الثوب الأحمر..

وانتظرت..

وفي تمام الثامنة، وصل (عماد)..

فتحت الباب، فوجدته يقف مبتسمًا، وقد أحضر باقة من الورد الأحمر.

ولكن شيئًا ما في ابتسامته، لم يرق لي..

لم تكن ابتسامة محب.

بل كانت أقرب إلى ابتسامة ذئب..

ولكنني تجاهلت هذا، وأنا أدعوه للدخول، وتركته يقبل خدي في رقة، قبل أن يقول في لهفة واضحة:

- فرحت جدًا، عندما اقترحتِ أن نحتفل بالعيد هنا.

غمغمت في قلق:

- أنت تعلم أنني أقيم وحدي.

مال على أذني، هامسًا:

- ولهذا فرحت.

عدت أنظر إلى عينيه وابتسامته..

لقد كنت على حق..

إنها عيون وابتسامة ذئب..

ذئب، انفرد بفريسته..

سألته في قلق:

- ماذا يدور في ذهنك يا (عماد)؟!

همس في أذني، بصوت كالفحيح:

- سأخبرك في الصباح.. يا حبيبتي.

ارتجف شيء ما في كياني..

لقد فهمت ما يعنيه

يا للرجال!!..

كلهم يحملون الجينات نفسها..

جينات الغدر..

حاولت أن أبتسم، وأنا أقول:

- دعنا نأكل كعكة عيد الحب أولا، وبعدها سأريك دولاب تذكاراتي.

طبع قبلة ثانية على خدي، وهو يهمس في حرارة:

- ومتى ستريني كنزك؟!

قلت في توتر، حاولت أن أضفى عليه بعض الصرامة:

- تذكاراتي هي كنزي.

راح يغازلني أثناء تناولنا الكعكة، وبعدها مال لتقبيلي في شفتي، فدفعته يكفي في رقة، وأنا أقول:

- شاهد تذكاراتي أولا.

اعتدل مبتسما، وهو يقول:

- لا بأس.. دعينا نراها على الفور.

نهضت، وقدته إلى حجرة تذكاراتي، وأدهشه بشدة ذلك اللون الأحمر، الذي طليت به جدرانها وسقفها، وحتى أرضيتها، وهتف ضاحكا:

- أتعشقين اللون الأحمر إلى هذا الحد؟!

أجبته، وأنا أفتح ضلفتيّ الدولاب الأحمر الكبير، في مواجهة باب الحجرة:

- إنه لون الحياة.

حدق ذاهلا في تذكاراتي، وشعرت بجسده ينتفض في عنف، وأنا أغرس خنجري الأحمر في عنقه، مستطردة:

- والموت.

وقفت هادئة، أراقب جسده وهو ينتفض على أرض الحجرة، ثم ملت نحوه، قائلة:

- لكي يظل التذكار نضرًا، لا ينبغي الانتظار حتى توقفه.

مع كلماتي، شققت صدره، ورأيت قلبه ينبض أمامي..

ويا له من مشهد جميل..

وبكل الحب، انتزعت قلبه من جسده، الذي انتفض انتفاضة أخيرة، ثم همد تمامًا..

لهذا اخترت الأرضية الحمراء..

الدم لا يظهر على أرضية حمراء..

وفي استمتاع، وضعت قلبه في وعاء جديد، يحوي مادة حافظة، ثم وضعته إلى جوار قلوب أحبائي السابقين، الذين أحببتهم، خلال الألف عام الماضية..

هذا أضعف ما في البشر..

لا يمكنهم العيش دون قلوبهم.

تراجعت خطوتين، وأنا أنظر بكل الحب إلى القلب الجديد، بين تذكاراتي الغالية..

قلب حبيبي.

أشباح..

يا لهذا العبث!!..

ما يحدث في هذا المكان هو العبث بعينه..

ولكنه لا يهتم..

لن ينجحوا في جذب انتباهه، مهما فعلوا..

فهو يعرف كل الحيل..

كلها بلا استثناء..

سار في هدوء، عبر أروقة القصر القديم، مرورًا بتلك القاعة الواسعة الكبيرة..

قاعة الموسيقى..

هناك كانوا يرقصون..

توقف، وألقي نظرة خاوية عليهم..

كانوا ينتمون إلى كل العصور، التي مر بها القصر القديم..

مماليك..

فرنسيون..

أتراك..

انجليز..

وحتى مليونيرات آخر مرة، ثم سكنى القصر فيها..

وبعدها لم يقطنه أحد..

الرعب الذي أصاب آخر ساكنيه، محا فكرة السكن فيه تمامًا..

تابعهم بعض الوقت وهم يرقصون..

كانوا يتوافقون على نحو عجيب، على الرغم من أنهم ينتمون إلى عصور مختلفة..

وقبل موتهم، كانوا يتحدثون لغات مختلفة أيضًا..

ولكن الموت يضع قواعد جديدة..

الكل يتقارب..

والكل يتحدث لغة واحدة..

لغة الأشباح..

هو نفسه اعتادها..

"ألن تشترك معنا؟...."

ألقى عليه كولونيل إنجليزي، من ضحايا الحرب العالمية الثانية السؤال، فأجاب في شيء من البرود:

- ليس الليلة.

هز الكولونيل الإنجليزي كتفيه، وعاد يراقص مطربة فرنسية، ثم إعدامها بالمقصلة، بسبب علاقتها بجنرال ألماني..

توقف ليتابع الرقص قليلًا، ثم واصل سيره، في اتجاه مكتبة القصر القديمة..

في نهاية الردهة، شاهد فارسا تركيا، يحاول السير متوازنا، على حافة أريكة كبيرة، فألقى نظرة لا مبالية عليه..

يا له من عبث!!..

الناس يخشون مجرد الاقتراب من هذا القصر؛ لأنه مسكون بالأشباح..

ولا أحد يعلم أنها أشباح تافهة..

مختلة..

عابثة..

أشباح تلهو وتعبث بلا هدف...

أشباح لا تخيف من يعرفها..

أو من يألفها..

في المكتبة وقف يتأمل صفوف الكتب، المتراصة من الأرض إلى السقف..

إنها - بالنسبة إليه- أعظم حجرة في القصر كله..

ولكن كل الذين امتلكوا القصر قديمًا أهملوها..

جذب ذلك السلم المتحرك، حتى ركن خاص من المكتبة، وصعد بوساطته إلى الرف السابع العلوي، واختار كتابًا..

كتاب عن الأشباح القديمة..

طريف أن يحتفظ مالك القصر الأول بكتاب عن هذا..

هبط إلى أرضية المكتبة، واتخذ مقعدًا وثيرًا، واستعدَّ للقراءة..

هل تقرأ هذا الكتاب دومًا؟..."

رفع عينيه في هدوء إلى صاحبة الصوت..

كانت تجلس أمامه مباشرة، بعينيها الناعستين الهادئتين..

تلك المطرية المصرية، التي قتلوها في حادث سيارة..

ولأنه اعتاد ظهورها المفاجئ، ابتسم مجيبا:

- أحاول أن أعرف أكثر.

هزت كتفيها، قائلة:

- ولماذا الكتاب؟!.. الأشباح حولك في كل مكان.

مط شفتيه، قائلا:

- إنها أشباح عابثة، لن تفيدني بشيء.

سألته في نعومة:

- هل حاولت؟!

هز رأسه نفيًا، وابتسم مغمغمًا:

- أعلم أنها لن تفيد.

تطلعت إليه لحظات، قبل أن تميل بنصفها العلوي، قائلة:

- من أهم الأشياء التي تعلمتها، في حياتي الدنيوية القصيرة، هو أن المظاهر تخدع دومًا.

أشار بيده، قائلًا:

- أرأيت ما يفعلونه طوال الوقت؟!

هزت كتفيها، مجيبة:

- وأشاركهم فيه أحيانًا.

قال في تحد:

- إذن!!

كانت تريد التقاط نفس عميق، كما كانت تفعل في الدنيا، ولكن الأشباح لا تتنفس، ولهذا فقد مالت أكثر، وهي تقول:

- ربما لأنه ليس لديهم هدفا.

كاد يطلق ضحكة عالية مجلجلة، وهو يقول:

- هدف؟!.. إنهم أشباح!!

تراجعت في مقعدها مبتسمة:

- حتى الأشباح، يمكن أن يكون لها هدف.

أدار الأمر في رأسه بسرعة، قبل أن يسأل في اهتمام:

- ماذا تتوقعين مني أن أفعل؟!

بدا عليها الحماس، وهي تجيب:

- أخبرهم أنك تريد معرفة المزيد عن عالم الأشباح، وأنك تنشد تعاونهم..

ربما ستمنحهم بهذا الهدف، الذي يحتاجون إليه.

عاد لتفكيره لحظات، قبل أن يقول:

- كنت أتصور أن الهدف ينتهي، بعد المرور بحالة الموت.

عادت تهز كتفيها، قائلة:

- معلومة جديدة تضيفها إلى معلوماتك عن عالم الأشباح إذن.

تراجع في مقعده مفكرًا..

أيمكن أن تكون على حق؟!

هل يمكن أن يصبح للشبح هدفًا؟ ...

الأحياء يقولون: إنه لديهم هدفًا للحياة.

ولكن ماذا عن الأشباح؟!..

أيكون لديهم هدف للموت؟..

"هراء.."..

سمع العبارة، بصوت خشن غليظ، فاعتدل يحدق في ذلك المقعد، الذي كانت تجلس عليه المطربة..

ولكنها لم تكن هناك..

كان يجلس بدلا منها رجل قوى، له لحية كبيرة، ونظرات صارمة، وعمامة ملكية..

ومن حزام وسطه، يتدلى سيف تركي أصيل..

وفي اهتمام، سأله:

- لماذا ترى أنه هراء يا باشا؟!..

أجابه في صرامة:

- كل ما تفعله هراء.. لماذا تريد معرفة الجديد عن الأشباح؟!

قال في حدة:

- ولماذا لا؟!

أجابه، وهو يدق سطح المكتب بقبضته:

- لأنهم أشباح.. أدوا أعمالهم في الدنيا، وهنا يرتاحون.

مال نحوه، يقول في حزم:

- يبدو أن معلوماتك أنت عن الأشباح قليلة يا باشا.

أمسك سيفه في غضب، هاتفا:

- كيف تجرؤ..

لم يبالِ بغضبه..

حتى سيفه، لا يمكن أن يقتل أحدًا..

لأنه سيف شبح..

ولهذا تراجع في مقعده في هدوء، وهو يقول:

- أتعلم لماذا تبقى الأشباح عالقة بالدنيا يا باشا؟!

احتفظ الباشا بملامح الغضب لحظات، ثم عاد يجلس، وهو يسأل:

- ماذا يقول الكتاب؟!

لوح بالكتاب، مجيبًا:

- يقول: إن الشبح يبقى عالقًا بالدنيا؛ لأنه هناك أمر لم يتمه بعد.

لوح الباشا بذراعه كلها:

- هذا هو الهراء بعينه.. كل مخلوق يموت، وهناك أمور لم يتمها بعد.

مال نحوه، يسأله في تحدٍ:

- لماذا يبقى البعض، ويرحل البعض إذن؟!

صمت الباشا مفكرا لحظات، ثم هز كتفيه:

- لست أدرى.

مال أكثر، قائلًا:

- ربما لأنه مازال لوجودهم هدف.

كان الباشا يريد أن يكابر، إلا إنه كشيح، لم يكن بإمكانه هذا، فتمتم:

- ربما..

قم بما عرضته عليك إذن..

ظهرت المطربة فجأة، خلف مقعد الباشا، وهي تقول هذا، فالتفت إليها الباشا في بطء:

- أنت تؤيدينه إذن؟

قالت في رقة:

- وماذا سنخسر؟؟

تأملها الباشا لحظات، قبل أن يقول بنفس الخشونة الغليظة:

- كان الأفضل أن تنتمي إلى عصر واحد، في حياتينا.

ضحكت، قائلة:

- كنت بالنسبة لي تاريخًا مشرفًا.

اعتدل هو، قائلا في اهتمام:

- هذه حقيقة جديدة عن الأشباح.. المشاعر تبقى.

التفت إليه الباشا في صرامة:

- ولكنها تختلف هي هنا مشاعر صرفه، ليس فيها شهوات.

قال مبتسما:

- لأنه ليس هناك جسد.

هزت المطربة كتفيها كعادتها:

- وليست هناك نزوات.

أشار إلى الباشا، قائلًا:

- ولكن الباشا شعر نحوك، بما يشعر به الرجل نحو المرأة.

هتف الباشا في غضب:

- أنت وقح.

لم يبال بغضبه، وهو يقول:

- حتى الغضب، هو إثبات على بقاء المشاعر.

نهض الباشا، وسحب سيفه الفضي، وهو يقول في صرامة:

- تستحق قطع رقبتك لهذا.

ابتسم في لا مبالاة:

- لا يمكنك قطع رقبتي يا باشا.

قال الباشا في حدة:

- ولم لا؟!.

أجابه بنفس الهدوء:

- لأنك مجرد.. شبح.

أطلقت المطربة ضحكة عابئة قصيرة، قبل أن تشير بكفها في رقة:

- ولأنه هو أيضًا شبح.

ابتسمت في هدوء..

نعم.. انا شبح..

شبح حديث: في عالم الأشباح..

ولهذا أريد أن أعرف أكثر عن عالمي الجديد..

وعن الأشباح.

بالسيف..

التهمت عيناه ببريق جنوني، وهو يقف ممسكا سيفه، أمام ذلك الكهل، الذي راح يرتجف في رعب، وهو يهتف باكيًا:

- الرحمة..

زمجر كالوحوش، وهو يصرخ فيه في شراسة:

- لا رحمة مع أمثالكم.

بكي الكهل في مرارة ويأس، وهو يقول:

- ماذا فعلت بك، حتى تعاملني بهذه القسوة؟!

صرخ في وحشية:

- ترفض أتباع آرائي وأفكاري.

هتف الكهل:

- أهذه جريمة؟ ... الله سبحانه وتعالى، عندما خلق البشر، خلق لكل منهم إرادة منفردة، وسيحاسب، جل جلاله كل منهم على نحو منفرد.. الله عز وجل أراد الناس مختلفين، فكيف تتحدى إرادة المنتقم الجبار؟ ... كيف؟

بدا كالوحش الجنون، وهو يصرخ:

- إرادته هي إرادتي.

صباح الكهل في انهيار:

- أي أحمق وضع هذا في رأسك وقلبك؟!.. بل أي مجنون؟

احتقن وجهه، حتى صار أشبه بنسخة بشرية من الشيطان، وهو يصرخ:

- كيف تجرؤ أيها الـ...

وقبل حتى أن يتم صرخته، هوى بسيفه على عنق الكهل..

وتناثرت الدماء في كل اتجاه..

تناثرت على ثيابه..

ولحيته..

وحتى فمه ولسانه..

ولكنه لم يبالِ..

لقد صار بالفعل أشبه بالوحوش الضارية..

ذاق طعم الدم..

وتلذذ به..

وعشقه..

ومع السيف، الذي يحمله بيديه، يشعر بالقوة..

فالسيف بتار.. يقطع ويبتر..

والسيف هو العزة..

والقوة..

والسطوة..

والبأس..

لم يبال بالدم الذي يغرقه، وهو يركل رأس الكهل في ازدراء، وكأنه ليس بشرا مثله، ثم ينتقل إلى شيخ طاعن في السن، بدا شديد الهدوء، على الرغم من القيود القوية، التي تربط معصميه خلف ظهره..

وأولئك الذين لا يخافون يثيرون أعصابه...

متعته الأساسية في الحياة، هي أن يرى الناس ترتجف أمامه..

تخاف..

تفزع..

تشعر بالعجز في مواجهته..

ويا لها من متعة..

"ألا تخشاني أيها الشيخ؟.."..

صرخ بها في شراسة وحشية، إلا أن الشيخ ظل هادئًا، وهو يجيب:

- لست أخشى إلا الله سبحانه وتعالى.

عاد يصرخ، في شراسة وحشية أكثر، وهو يقرن صرخته بتلويحة تهديد من سيفه:

- إياك أن تذكر اسمه.

وبدلا من الخوف، حملت شفتا الشيخ ابتسامة ساخرة، وهو يقول بنفس الهدوء:

- أتظنه حكرًا عليك؟!

اتسعت عيناه واحمرتا، وهو يصرخ:

- أتجرؤ.

بدت لهجة الشيخ متحدية، وهو يقول:

- وماذا يمنعني؟!.. الخوف؟!.. على ماذا؟!.. وعلى من؟!.. الوحش في أعماقك قتل كل ما كنت أبالي به في الحياة.. الجمال، والسعادة، والهدوء، والأسرة، والاستقرار والأمان... قتلتها مدعيًا أنك تقاتل من أجل رسالة نبيلة.

زمجر في جنون صارخًا

- إنها كذلك.

اتسمت ابتسامة الشيخ الساخرة، وهو يقول:

- شيطانك ساذج حقير، لو تصور أن مخلوقًا عاقلًا واحدًا، يمكن أن يصدق، أن القتل والتعذيب والوحشية والبذاءة، والشراسة والكذب والغش والخداع، هم وسائل رسالة نبيلة..

الشيطان زين لك شروره؛ لترتكبها من أجله، مدعيًا أنها رسالة نبيلة.

احتقن وجهه أكثر، ولوح بسيفه، صارخًا:

- إنها أشرف رسالة.

قال الشيخ في هدوء:

- وأحقر مقاتل.

ارتفع غضبه، وهو يميل نحو الشيخ، صارخًا كالوحش الكاسر:

- سأقطع رأسك، وأبول عليها.

هز الشيخ رأسه في لامبالاة، قائلًا:

- لقد بلغت من العمر أرذله، وفقدت عائلتي كلها على يديك، ويدي الشياطين أمثالك، ولا بأس من أن تفعل برأسي ما تريد، بعد أن تقطعه؛ فلا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.. وكلما زادت وحشيتك في التمثيل بجثتي، زاد إيمان الناس بأنك من أتباع الشيطان، ولست من المدافعين عن الله عز وجل..

كان الشيخ عاجزا، مقيدا، مسلوب الإرادة أمامه.

ولكنه شعر بالخوف منه..

ويا له من خوف!!..

هو الذي يحمل السيف..

وهو الذي يرتجف خوفا..

وكما علمه قادته، يوجد سبيل واحد لقهر هذا الخوف..

القوة..

وبكل قوته، رفع السيف إلى أعلى ما يستطيع، صارخًا:

- ستموت أيها الشيخ.

لم يبد أدنى خوف على الشيخ، وهو يقول:

- من عاش بالسيف مات بالسيف.

تجمدت يده في الهواء، واتسعت عيناه..

أي شيخ هذا؟!..

وأية كلمات!!..

بكل عصبية، هتف:

- أي قول مأفون هذا؟!

مال الشيخ نحوه، وابتسم ابتسامته الساخرة، وهو يقول:

- أنت ستقتلني بسيفك... ولكن كيف ستموت أنت؟!

ارتجف مرة أخرى، وهو الذي يحمل السيف..

ثم قرر تطبيق قاعدة قادته..

ورفع سيفه إلى أعلى أكثر..

وبكل قوته، هوى به..

لكن ارتفاع السيف الزائد، كانت له تداعياته..

لقد قطع أحد الأحبال الرئيسية، التي تربط العروق الخشبية بالسقف.

وهوى عرق خشبي ضخم ثقيل..

وكان المشهد عجيبًا..

كان أشبه بمشهد تم إعداده بدقة بالغة، في فيلم سينمائي عالي التكلفة..

فالعرق الخشبي هوي، عندما انحنى هو؛ ليضرب عنق الشيخ..

وأرتطم العرق الخشبي بظهره..

بمنتصف عموده الفقري تمامًا..

وسمع الشيخ صوت عظام تتكسر..

وشعر هو بآلام رهيبة في ظهره..

وبفقدان الشعور تمامًا، في نصفه السفلى..

أما سيفه، فقد طار في الهواء..

تم هوى بدوره..

كانت يداه ممدودتان أمامه، كحركة غريزية، يقوم بها المرء مع سقوطه..

واختار السيف هدفه بدقة..

أو أن القدر هو الذي اختار المسار..

وبمنتهى الدقة..

فالسيف هوى بحافته الحادة على معصميه..

وبتر كفيه في ضربة واحدة..

وصرخ هو في ألم ورعب...

صرخ..

وصرخ..

وصرخ..

واندفعت الدماء من كفيه المقطوعين، تصنع من حوله بحيرة حمراء

قانية..

وفي هدوء، تطلع إليه الشيخ..

في هدوء لا يحمل أية مشاعر..

على الإطلاق..

أما هو، فقد أصابته حالة، لم يتصور أن يصاب بها قط..

حالة من الألم..

والعجز..

والشلل..

والضعف..

والخوف..

والرعب..

والانهيار..

الضربة، التي أصابته في ظهره، كسرت عموده الفقري، وقطعت حبله الشوكي..

وأصابته بالشلل..

شلل دائم، لا علاج له، في نصفه السفلى..

وثقل العرق الخشبي يثبته في الأرض...

وكفاه مبتوران..

إنها حالة تناقض ما قاتل من أجله طيلة عمره..

حالة ضعف..

تام..

وفي يأسه وانهياره هتف:

- الرحمة يا رب العالمين.

تطلع إليه الشيخ، بتلك النظرة الخاوية، ثم زحف في بطء، حتى بلغ السيف، الذي مازال ملوثا بالدم..

وفي هدوء، استدار يلتقط السيف، ويستخدم حافته لقطع قيوده..

وراقبه هو في فزع وارتياع، مغمغمًا:

- هل ستقتلني؟!

نهض الشيخ واقفًا على قدميه، بعد أن تخلص من قيوده، وتطلع إليه لحظات، قبل أن يقول في هدوء:

- ما فعلته بعائلتي يستحق القتل فعلًا.

اتسعت عيناه في ذعر، ولكن الشيخ ألقى السيف، مستطردا:

- ولكنني لن أفعل.

شعر بدهشة، ارتجف لها جسده، وهو يغمغم:

- هل ستعفو عني، بعد كل ما فعلته؟!

ابتسم الشيخ، قائلا:

- ولا هذا أيضًا.

حدق فيه حائرًا متألمًا، ولكن الشيخ أشار إلى الرءوس المقطوعة من حوله، وهو يستطرد:

- بعد قليل سيحل الظلام.. ورائحة دماء الرءوس، التي قطعتها بسيفك، ستجذب كل حيوانات وقوارض المنطقة.

اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يتصور الميتة البشعة، في حين التقط الشيخ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول:

- سبحان الله.. من عاش بالسيف مات فعلا بالسيف... بسيفه.

ثم التقط عصاه، وغادر المكان في هدوء، وترك بابه مفتوحًا..

واتسعت عيناه هو بكل الرعب..

فهناك في الركن، كان هناك زوج من الأعين يحدق فيه..
لقد جذبت رائحة الدم قوارض ووحوش المنطقة بالفعل..
وسينعمون هذه الليلة بوجبة كبيرة دسمة، تكفي الكل..
وجبة من وحش عاش بالسيف..
ومات بنفس السيف...
مائة مرة.

جن..

"أنت إذن تقوم بتحضير الجن...".

قالها ذلك القادم، في سخرية ملحوظة، فرفع الدكتور (فهمي) عينيه إليه، قائلا في صرامة غاضبة:

- لا تسخر مما تعجز عن فهمه يا هذا.

اتسعت ابتسامة الرجل الساخرة، وهو يقول:

- أتفهمه أنت؟!

اعتدل الدكتور (فهمي)، وعدل منظاره الطبي على أنفه، وهو يقول في صرامة:

- أنت تقف أمام أشهر عالم، في فيزياء ما فوق الطبيعيات، في جميع المحافل العلمية..

هز الرجل كتفيه في استهتار، وجلس دون أن يدعوه الدكتور (فهمي) لهذا، وأشار بيده، قائلًا:

- لا داعٍ لتقديم نفسك.. لقد حضرت كل محاضراتك.

قال الدكتور (فهمي) في دهشة:

- كلها؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابا:

- نعم... كلها.

جذب الدكتور (فهمي) نفسًا عميقًا، كمن يستعد لخوض نزالا، وهو يقول:

- هذا مستحيل!... عمليًا.

هز الرجل كتفيه مرة أخرى، قائلًا:

- ولم؟!

أجابه الدكتور (فهمي) متحديًا:

- أنا ألقى محاضراتي منذ نصف قرن، وعمرك، حسبما يبدو، ولم يتجاوز الأربعين بعد.

التقط الرجل نفسا عميقا، وقال:

- شبكة الإنترنت صارت أشبه بآلة زمن.

غمغم الدكتور (فهمي) في حذر:

- أتمنى أن..

قبل أن يتم تساؤله، أوما الرجل برأسه إيجابًا، وأكمل:

- نعم... لقد طالعت كل محاضراتك، على شبكة الإنترنت.

صمت الدكتور (فهمي) يتأمله لحظات، قبل أن يسأله:

- ولماذا تهتم بالجن، ما دمت لا تؤمن بوجودهم؟!

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- على العكس.. أنا أؤمن بوجودهم تمامًا.

تراجع الدكتور (فهمي) في دهشة:

- ماذا إذن؟!

بدت له ابتسامة الرجل مخيفة، وهو يقول:

- أنا أؤمن بالجن، ولكنني لا أؤمن بك أنت.

التقى حاجبا الدكتور (فهمي)، وهو يغمغم في حذر شديد:

- لماذا أنت هنا إذن؟!

لوح الرجل بذراعه كلها:

- لأكشفك.

حدق به الدكتور (فهمي) لحظات مستنكرا، ثم تراجع في مقعده، مرددًا:

- تكشفني؟!.. أنت؟

اعتدل الرجل في حركة حادة، وهو يقول في صرامة:

- ولن تكون أول من اكشف خداعه، تأمله الدكتور (فهمي) لحظات في صمت، ثم عقد كفيه أمامه، وتراجع في مقعده، وهو يقول:

- أرنى كيف ستفعل؟!

ابتسم الرجل ابتسامة واثقة، وهو يقول:

- أرني أنت ما تفعله.

صمت الدكتور (فهمي) لحظات أخرى، ثم قال:

- ماذا أخبروك أنني أفعله؟!

أجابه في تحدٍ:

- تدعى تحضير الجن.

هز الدكتور (فهمي) رأسه نفيًا في بطء:

- لم أدع هذا قط.

عاد الرجل يتراجع في مقعده:

- قلت: إنك خبير في عالم الجن.

أومأ الدكتور (فهمي) برأسه إيجابا:

- هذا صحيح.

قهقه الرجل ضاحكًا في سخرية، قبل أن يقول:

- وكيف لك هذا؟ ... هل التقيت شخصيًا بأحد من الجن من قبل؟!

التقط الدكتور (فهمي) نفسًا عميقًا وقال في صبر:

- ما من عالم فلكي غاص بنفسه في قلب الشمس، ولكن عشرات من علماء الفلك، يستطيعون أن يصفوا بدقة ما يحدث في قلب الشمس.

أشار الرجل بيده، قائلًا

- فارق كبير بين هذا وذاك؛ فالشمس يمكن رؤيتها، بوساطة المناظير الفلكية، ومقاييس الطيف، والنماذج ثلاثية الأبعاد، وهذا لا ينطبق على عالم الجن.

استغرق الدكتور (فهمي) في التفكير لحظات، قبل أن يقول:

- وماذا عن قلب الذرة؟!.. جسيمات عديدة تم وصفها بدقة، قبل أن تراها الميكروسكوبات الإليكترونية بأعوام.

قال الرجل متحديا:

- كانت هناك حسابات رياضية.

هتف الدكتور (فهمي) في ظفر:

- وهذا ينطبق على عالم الجن.

نهض الرجل، يقول في حزم صارم:

- مستحيل... لأنه ما من معطيات أولية، يمكن استخدامها؛ لوضع القوانين الأساسية.. بل ليس هناك من رأى الجن فعليًا.

أجابه الدكتور (فهمي) في سرعة:

- سيدنا (سليمان) عليه السلام فعل.

هز كتفيه، قائلًا

- إنه نبي.. ثم أنه لم يمنحنا أية معطيات أساسية.

رفع الدكتور (فهمي) سبابته، قائلًا في حزم:

- في هذا تخطئ، وتثبت جهلك يا رجل.. قصة سيدنا (سليمان) أعطتنا الكثير من المعلومات والمعطيات الأساسية، عن عالم الجن.

بدا الاهتمام على الرجل، وهو يعاود الجلوس، متسائلا:

- مثل ماذا؟!

أجابه الدكتور (فهمي)، وقد راوده شعور بقرب الانتصار:

- مثل أن تواجد الإنس والجن في مكان واحد ممكن، كما كان في بلاط (سليمان) عليه السلام، وهم يتباحثون في شأن عرش (بلقيس).

تراجع الرجل في مقعده، وهو يقول في اهتمام:

- هذا صحيح.

واصل الدكتور (فهمي) في حماس:

- الواقعة تثبت أن لديهم علومًا متطورة؛ بدليل أن أحدهم قال: إنه يستطيع أن يأتي بعرش (بلقيس)، قبل أن يقوم سيدنا (سليمان) عليه السلام من مكانه.

هز الرجل كتفيه، قائلًا:

- هذا أمر بسيط.

مال الدكتور (فهمي) نحوه، مردفا في حماس:

- وهم ليسوا خارقين أو منيعين؛ لأنه عليه السلام كان يعاقبهم، وليست لديهم قدرة على معرفة الغيب؛ لأنه عندما مات، لم يعلموا إلا عندما أكل النمل عصاه.

ران الصمت عليهما لحظات، ثم قال الرجل في استخفاف:

- أهذا كل ما تستند إليه؟!

انعقد حاجبا الدكتور (فهمي)، وهو يغمغم:

- هناك أمور أخرى، تعجز عن فهمها.

انطلقت ضحكة الرجل عالية، ساخرة، مستفزة، قبل أن ينظر إلى الدكتور (فهمي)، قائلًا

- أمور أعجز عن فهمها ال.. نفس ما سمعته من كل النصابين.

انتفض جسد الدكتور (فهمي)، وهو يقول:

- إياك أن تصفني بهذا.

نهض الرجل في حركة حادة، وهو يقول في شراسة:

- بم ينبغي أن أصفك إذن؟!.. بأنك محتال؟!..

هتف الدكتور (فهمي):

- لست محتالا.

اقترب منه الرجل:

- بم تصف نفسك إذن؟!

صاح الدكتور (فهمي)، وهو يتراجع:

- أنا أحد أشهر علماء هذا المجال.

اقترب الرجل أكثر، وهو يقول في لهجة مخيفة:

- أي مجال؟!.. خداع الجهلاء؟!

تراجع الدكتور (فهمي)، وهو يقول في توتر:

- من أنت؟!.. وماذا تريد مني؟!

واصل الرجل اقترابه، وحملت عيناه لمحة وحشية، وهو يقول:

- أخبرتك من قبل.. أنا خبير في كشف أمثالك؟!

هتف الدكتور (فهمي)، وهو يلتصق بالجدار:

- قلت لك: إنني عالم محترم.

اقترب الرجل منه، حتى صارت أنفاسه تختلط بأنفاس الدكتور (فهمي)، ووضع راحتيه على الجدار، إلى يمين رأسه ويساره، وهو يقول في شراسة عجيبة:

- كلهم قالوا هذا.

ازدرد الدكتور (فهمي) لعابه في صعوبة، وهو يقول في صوت مبحوح:

- سأستدعي الأمن.

قال الرجل في تحدٍ:

- افعل.

غمغم في توتر شديد:

- سيتهمونك بالاعتداء على أستاذ جامعي، أثناء تأدية عمله.

ابتسم الرجل في سخرية مرعبة:

- ليس لديك عمل اليوم.. لقد راجعت جدولك، ولست أدرى حقًا ماذا تفعل هنا؟!

شعر الدكتور (فهمي) بتوتر شديد يسري في كيانه، وهو يغمغم في صوت مبحوح:

- ما تفعله يندرج تحت بند مخالفة القانون.

اتسعت ابتسامته الشرسة المخيفة:

- وماذا عما تفعله أنت؟!

ثم مال نحوه أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وضاقت عيناه في شدة..

"ماذا فعلت أيها التعس؟!.."..

هتف بها الجني، المسئول عن العلاقات البشرية، فغمغم الواقف أمامه في صرامة:

- لقد استفزني.

بدا لحظة وكأنه سيكتفي بهذا القول، إلا أنه أضاف في عصبية:

- وتحداني.

قال مسئول الجن في غضب:

- أيعني هذا أن تحرقه؟!

قال الواقف أمامه في عصبية:

- لم يكن أمامي سوى هذا.. ولكن اطمئن.. جثته احترقت عن آخرها، ولم يبق منها أثر.

قال المسئول في حدة:

- وماذا لو أنه هناك آخرون؟!

لم يجب، فاستطرد المسئول في صرامة:

- هذا تحذير أخير لك، أيها الجني المشاغب... إياك أن تقدم على حماقة أخرى، وإلا كان هذا نهاية وجودك على الأرض.

أومأ برأسه، دون أن يجيب، فأشار مسئول الجن بيده، صائحًا:

- هيا.. عُد.. واعتبر هذا انذارك الأخير.

التقط نفسًا عميقًا، واستدار يواجه الجدار..

عليه أن يكون حذرًا في المرات القادمة..

وأن يتمالك أعصابه..

عبر الجدار في خفة، استعاد بعدها هيئته البشرية، التي اعتادها..

هيئة الدكتور (فهمي).

في القبر..

حدق (شحاته) في وجه زميله (نجاتي) في ذهول مستنكر، وهما يجلسان على ذلك المقهى الشعبي الصغير، فرفع (نجاتي) سبابته إلى شفتيه، محذرًا (شحاته) من ارتفاع صوته، فخفض هذا الأخير صوته بالفعل، وهو يقول في جحد:

- أنت مجنون حتمًا.

التقط (نجاتي) نفسًا عميقًا من سيجارته، ونفثه في الهواء في بطء، قبل أن يقول في هدوء:

- بل أنا عاقل تمامًا.

خفض (شحاته) صوته في صعوبة، مع الانفعال الجارف، الذي يشعر به، وهو يقول في عصبية:

- عاقل؟!.. تريدنا أن ننبش قبرًا، ونقتلع أسنان ميت، وتقول: إنك عاقل؟!

نفت (نجاتي) دخان سيجارته مرة أخرى في عصبية، بذل جهدًا خرافيًا للسيطرة عليها، قبل أن يميل نحو (شحاته) قائلًا:

- أولا: فكرة نبش القبور هذه فكرة قديمة.. كل ما سنفعله هو أن نفتح باب مقبرة، ونهبط في درجات سلمها، إلى حيث ترقد الجثث، ونعثر على جثة الحاج (رضوان).

تراجع (شحاته) مصعوقا:

- الحاج (رضوان)؟!.. صاحب معرض السيارات؟!.. الرجل مات بالأمس فقط!!..

مال (نجاتي) نحوه أكثر، وهو يقول:

- ولهذا لابد وأن نتحرك في سرعة، قبل أن يسبقنا أحد.

غمغم (شحاته):

- يسبقنا؟!

ثم ارتفع صوته، على الرغم منه، وهو يهتف:

- ولماذا يسبقنا أي عاقل إلى هذا؟!

رفع (نجاتي) سبابته إلى شفتيه مرة أخرى، وتلفت حوله في قلق، خشية أن يكون أحدًا من رواد المقهى قد انتبه إليهما، ومال مرة أخرى نحو (شحاته)، قائلا في صرامة:

- قُم.. سنكمل حديثنا في مكان أكثر هدوءًا.

وبينما يسيران بمحاذاة كورنيش النيل، في منطقة هادئة، أكمل (نجاتي):

- الأسنان التي تتحدث عنها ليست أسنانًا عادية.. الحاج (رضوان) كان يتباهي بأن نصف أسنانه من الذهب، وعندما كان يبتسم، كانت سنته الذهبية الأمامية تلتمع، تحت أشعة الشمس.

بدا (شحاته) مبهورًا، وهو يقول:

- أسنان من ذهب؟!

أدرك (نجاتي) أنه يقترب من هدفه، فلوح بكفيه، قائلًا في لهجة مغرية:

- لقد بحثت على شبكة الإنترنت، وعلمت أن أسنان الشخص البالغ، يبلغ عددها اثنتين وثلاثين.. والضروس أثقل حتمًا من الأسنان.. وهذا يعني أننا سنحصل على ست عشرة قطعة ذهبية، من فم الحاج (رضوان).

سأله (شحاته) في لهفة:

- وكم سيبلغ ثمنها في رأيك؟!

ابتسم (نجاتي) في ظفر، وهو يجيب:

- خمسة آلاف على الأقل.

التمعت عينا (شحاته)، وهو يسأل، ولعابه يسيل:

- وكم سيبلغ نصيبي منها؟!

كان (نجاتي) ينوى اقتسام المبلغ معه مناصفة، ولكن سؤاله جعله يجيبه في حزم:

- ألفين.

التمعت عينا (شحاته) أكثر، ولكن سرعان ما خبت التماعتهما، وهو يقول في صوت مرتجف:

- ولكن أن تدخل قبر شخص حديث الوفاة..

هتف به (نجاتي) في حدة:

- وما الفارق؟!

تطلع إليه (شحاته) في تساؤل حائر مرتجف، فتابع بنفس الحدة:

- ما الفارق بين شخص حديث الوفاة، وأخر قديم الوفاة.. كلاهما موتى أيها الغبي.

تراجع (شحاته) مغمغمًا:

- نعم.. ولكن..

لم يشأ (نجاتي) أن يمنحه فرصة للتراجع، فاستدار يوليه ظهره، ويسير مبتعدا عنه، وهو يقول في حدة:

- فليكن يا (شحاته).. سأبحث عن شخص آخر، يفوز بالـ..

انتظر....

هتف بها (شحاته في ذعر، خشية أن يفقد المبلغ..

وبعد ساعة واحدة، كان الاثنان في منطقة المقابر..

وأمام ضريح الحاج (رضوان) مباشرة..

إنني أرتجف...

همس بها (شحاته) في رعب، فأجابه (نجاتي) في ازدراء:

- اهدأ.. انهم موتى.. لم نسمع يومًا عن ميت أذى حيًا.

قالها، وهو يتسلق سور الضريح، ثم يهبط داخله، فحدق فيه (شحاته) في رعب، عبر الباب الشبكي المعدني، فصاح فيه في خفوت:

- ماذا تنتظر؟!

استنفر (شحاته) كل طمعه وإرادته، وألقى حقيبة الأدوات عبر السور، ثم تسلقه، وهبط على الجانب الآخر..

«سنرفع بلاطة الأسمنت أولا..»

كان جسد (شحاته) يرتجف، ولكنه ساعد (نجاتي) على رفع بلاطة الأسمنت الثقيلة، والاثنان يحرصان على عدم إصدار أي صوت وانفتح القبر أمامهما..

ومنه انبعثت رائحة رطبة عفنة، جعلت (شحاته) يتراجع، ويطلق شهقة رعب، وعيناه تتسعان عن آخرهما..

وفي صرامة وغضب وخفوت، هتف به (نجاتي):

- كف عن حماقاتك هذه، وناولني المصابيح اليدوية.

وفي جرأة، هبط (نجاتي) إلى داخل القبر، وهو يضئ طريقه بمصباحه اليدوي، ولحق به (شحاته) وهو يرتجف..

فكرة التواجد داخل قبر ليلا كانت تخيفه..

أو ترعبه..

أو هي في الواقع.. تقتله..

هبط في درجات السلم درجة بعد درجة، مع مساحة زمنية غير قليلة، بين كل درجة وأخرى..

«هل سنقضي الليل كله هنا؟.....»

هتف به (نجاتي) في غضب، فانتفض جسده رعبًا، وانطلقت من حلقه شهقة قوية، حتى أن توازنه اختل، وسقط داخل المقبرة، و..

والتقطته يد (نجاتي)، قبل أن يقع..

«ماذا أصابك؟!....»

هتف به (نجاتي) في غضب، فانتفض جسده مرة أخرى:

- لقد.. لقد انزلقت..

نظر إليه (نجاتي) في غضب، وضوء مصباحيهما اليدويين يتراقصان على جدران وأرضية المقبرة، ويصنعان ظلالا هائلة مخيفة، جعلت (شحاته) يحبس أنفاسه بكل الرعب..

«اسمعني جيدًا يا (شحاته)....»

قالها (نجاتي)، وهو يكظم غيظه وغضبه في صعوبة..

وكم تمني لحظتها أن يقتل (شحاته)، ويبقيه مع الموتى في المقبرة..

فهو يدرك أن هذا الأحمق سيفسد عمله حتمًا..

إن لم يكن الآن، ففيما بعد..

بهذه الأعصاب الضعيفة، لن يلبث أن ينهار حتمًا..

إن أجلا أو عاجلا..

وعندئذ سيفشي السرّ..

وستكون النهاية..

لهذا خطط منذ البداية؛ للتخلص منه، بعد الحصول على الأسنان الذهبية..

ولهذا اختاره من الأساس..

ولولا احتياجه لشريك، يرفع معه البلاطة الإسمنتية الثقيلة، ويعيدها معه إلى موضعها، ما اختاره..

«هل سمعت يوما عن ميت، عاد إلى الحياة؟!....»

ألقى السؤال في وجه (شحاته) مباشرة، فارتجف جسده، وهو يدير عينيه فيما حوله، مغمغمًا:

- لم أسمع.. ولكن..

قاطعه في صرامة:

- ولكن ماذا؟!..

أدار (شحاته) عينيه فيما حوله مرة أخرى، على ضوء مصباحه، ثم غمغم في توتر:

- ربما..

عاد (نجاتي) يقاطعه في حدة غاضبة:

ربما ماذا؟!.. عد إلى رشدك يا هذا.. الموت هو نهاية مشوار الحياة.. لا أحد يعود من الموت، إلا في أفلام الخرافات السخيفة.. في الحياة لم يفعلها أحد.. هل تفهم؟ ... لم يفعلها أحد قط..

غمغم (شحاته) في رعب:

- نعم.. أفهم.

جذبه (نجاتي) من قميصه، وهو يسأله في صرامة:

- والآن.. هل تتذكر ما سنفعله؟!

أجابه (شحاته) مرتجفًا:

- سنشق الأكفان، حتى نعثر على جثة الحاج (رضوان).

سأله (نجاتي) في شراسة:

- ثم ماذا؟!

ارتجف أكثر، وهو يقول:

- نستخدم الآداة التي أحضرناها، لاقتلاع كل سن أو ضرس ذهبي في فكيه.

أفلت (نجاتي) قميصه، وقال في صرامة:

- عظيم.. دعنا نبدأ عملنا إذن، قبل أذان الفجر.

كانت هناك ثلاث جثث في المقبرة، قاما بشق أكفانها، قبل أن يضئ (نجاتي) مصباحه في وجه جثة الحاج (رضوان)، قائلًا:

- ها هوذا.

وارتجف (شحاته) أكثر..

الرجل كان يبدو وجهه نضرًا، وكأنه نائم فحسب، وليس ميتًا

لقد سمع من والدته أن ملامح الإنسان تتغير بعد الموت..

ولكن ملامح الحاج (رضوان) لم تفعل..

إنها كما هي...

«سأحضر الآداة، وعليك أن تمسك فكيه، حتى أقتلع أسنانه..»

قالها (نجاتي)، وهو يبحث عن الآداة في حقيبته، فانتفض (شحاته)، هاتفا بكل الرعب:

- لا.. مستحيل!!

قلب (نجاتي) شفتيه في احتقار وازدراء:

- فليكن.. سأفعل هذا وحدي.

ابتعد (شحاته) قليلًا، وأولاه ظهره، وأغمض عينيه، وجسده كله يرتجف، فانقلبت شفة (نجاتي) السفلي في ازدراء، و..

وفجأة، قبضت يد على معصمه، واتسعت عيناه عن آخرهما في رعب، وانتفض جسده انتفاضة أكثر عنفًا، من مجموع انتفاضات (شحاته) كلها، وحدق في ذهول ورعب، في وجه الحاج (رضوان)، وانطلقت من حلقه شهقة صغيرة قصيرة..

شهقة استدار لها (شحاته)، مع ضوء مصباحه..

ورأى..

رأى (نجاتي) ملقى أرضًا، وجثة الحاج (رضوان) جالسة، تتطلع إليه مباشرة..

«حالة نادرة للغاية....»

قالها الطبيب الشرعي أمام الضابط ووكيل النيابة، قبل أن يهز رأسه، متابعا:

- ضربات القلب تنخفض بشدة، والجسد يتخشب، ويبدو الأمر، حتى لبعض الأطباء، أنها حالة وفاة.

قال وكيل النيابة في اهتمام:

- أتعنى أنه لو لم يفتح المجرمان القبر، ويشقان الكفن..

أكمل الطبيب، قبل أن يتم وكيل النيابة سؤاله:

- لمات الحاج (رضوان) مدفونًا في قبر، لا يملك وسيلة للخروج منه.

هز الضابط رأسه، قائلًا في مهابة:

- سبحان الله.. وكأنه عز وجل أرسلهما فقط لإنقاذ حياة الحاج (رضوان).. أهو بخير؟

قال الطبيب الشرعي:

- سيتعافى ويعود لعمله خلال أسبوع واحد.. على عكسهما.. أحدهما مات بأزمة قلبية..

ثم أشار إلى الجالس بين شرطيين، مكملًا:

- والآخر أصيب بالجنون.

وفي حالته هذه، لم يستوعب (شحاته) ما يقوله الطبيب الشرعي..

لم يستوعبه أبدًا.

الوشم..

منذ يومه الأول في الكلية وهو خائف..

خائف من كل شيء..

من المكان..

والجدران..

والأساتذة..

وحتى الطلاب...

وربما بالذات.. الطلاب..

هذا لأنه أضعف من أن يواجه كل هذا..

فهو، ومنذ مولده، ضئيل..

قصير..

رقيق..

هادئ..

باختصار، هو شخص عاجز عن المواجهة..

أية مواجهة..

تماما..

وربما لهذا، ومنذ خطا خطوته الأولى في الكلية، كان يرتجف..

وربما لارتجافته، جذب إليه أنظار ذلك المتنمر الضخم، الذي اعتاد مضايقة كل طالب جديد..

«اسمك وعنوانك..»

قالها ذلك المتنمر في صرامة قاسية، وهو يعترض طريقه كجبل ضخم، ويرمقه بنظرة وحشية مخيفة، جعله يرتجف، وهو يقول:

- اسمي (حسام).

مال عليه ذلك المتنمر الضخم، حتى كادت أنفاسه تطرد كل الهواء، وهو يقول:

- وأنا اسمي (الجمَّال).. وهم يسمونني هنا (جبار)، وهذا الاسم الذي ستناديني به، من الآن فصاعد، هل تفهم؟!

سؤاله الأخير ألقاه في شراسة مخيفة، جعلته هو يرتجف أكثر، دون أن يطاوعه لسانه على النطق..

حاول..

وحاول..

وحاول..

ولكن لسانه لم يتحرك..

كان وكأنه قد تجمد في حلقه، وأصيب بشلل تام، من فرط الرعب..

ولم يفهم ذلك المتنمر هذا..

كل ما فهمه بذكائه المحدود، هو أن ذلك الهش الضعيف الواقف أمامه، يأبى أن يعترف له بالقوة..

ولهذا جذبه من قميصه في عنف، وهو يصرخ في وجهه مكررًا:

- هل تفهم؟!

جذبته العنيفة مزقت أزرار القميص، وكشفت صدر الهزيل..

وعلى صدره، بدا ذلك الوشم واضحا..

وشم لقطة وديعة، لها عينان واسعتان جميلتان..

وعلى الرغم من محاولة الهزيل إخفاء الوشم، كانت لدى المتنمر الضخم فرصة كبيرة لرؤيته..

في البداية، ارتسمت في عينيه وملامحه الدهشة..

ثم، وبسرعة، تحول هذا إلى ضحكة ساخرة متفجرة، وهو يهتف:

- قطة؟!.. وشم قطة؟!.

غمغم الهزيل في صعوبة:

- لا شأن لك بهذا.

ولكن المتنمر كرر، في سخرية لاذعة:

- حتى الوشم الذي تضعه وشم قطة.

قهقه على نحو، جذب إليه كل الموجودين في ساحة الكلية تقريبًا، فالتفوا حولهما، في حين أزاح هو ذراع الهزيل في قوة؛ ليبدو الوشم واضحًا للكل:

- انظروا.. وشم قطة.. هذا الفأر وضع على صدره وشم قطة.

كل من رأى الوشم انفجر ضاحكًا بدوره..

ومن حوله، ارتسمت دائرة كبيرة من الضحك..

والسخرية..

والتعليقات اللاذعة المهينة..

وانكمش هو في مكانه..

انكمش، وهو يشعر بغضب كبير..

وهو أضعف من أن يواجه هذا..

أضعف كثيرًا..

«جدي هو الذي منحني إياه..»

قالها في تخاذل منكمش، وهو يحاول السيطرة على غضبه وضعفه، فقهقه

المتنمر في قوة أكثر، وهو يهتف:

- حتى جده كان يعلم أنه فأر.

قهقه هو وكل المحيطين به، عقب هتافه الأخير، في حين انكمش الهزيل أكثر، محاولا إخفاء وشمه بيده..

"هذا الوشم سيحميك طيلة عمرك..

كان في الثالثة من عمره، عندما سمع تلك العبارة من جده، فرفع عينيه إليه في براءة:

- كيف سيحميني يا جدي؟!

ابتسم الجد في حنان، وهو يقول:

- عندما تحين اللحظة.. سترى.

تحسس الوشم، الذي طبعه جده على صدره، دون أن يفهم، في حين كشف جده صدره بدوره، وهو يتحسس شعره، قائلًا:

- انظر.. لديّ مثله.

ثم مال نحوه، مضيفًا بكل حنان:

- ولقد حماني دومًا.

تذكر هذا وهو يحاول السيطرة على غضبه وضعفه..

"منذ هذه اللحظة، اسمك الذي سيناديك به الجميع، هو (قط)..

هذا المتنمر، الذي ألقي عبارته، ثم قهقه في قوة، فتبعه الكل في قهقهته الساخرة العالية، تجاوز كل الحدود..

ضخامته الجسدية مجرد صفة وراثية، لا فضل له فيها..

والمفترض أن يحمد الله سبحانه وتعالى ويشكره، على نعمة كهذه..

ولكن الشيطان استولى على عقله وقلبه تمامًا..

وبدلا من أن تكون قوته في سبيل الخير، جعل منها أداة للشر..

«وأنت فأر..»

أفلتت العبارة من بين شفتيه، في غضب عصبي، مع عجزه عن السيطرة على مشاعره..

ومع انفلاتها، تفجرت القنبلة..

قنبلة من الذهول والاستنكار، تفجرت في كل العيون، وأضيف إليها شلال الغضب، الذي انهمر من عيني المتنمر..

ثم ساد صمت طويل..

ثقيل..

رهيب..

مهيب

مخيف..

صمت انحبست خلاله الأنفاس..

الكل راح ينقل بصره بين المتنمر بجسده الضخم العملاق، والهزيل بجسده الضعيف الضئيل، في انتظار رد الفعل..

وفى بطء وغضب، مال المتنمر نحو الهزيل، وهو يقول بكل شراسة:

- إلى من قلت عبارتك؟

لم يكن هناك مجال للتراجع، لذا فقد انكمش الهزيل أكثر، وهو يغمغم في صعوبة:

- أنت.

أطلت نيران الجحيم من عيني المتنمر، وهو ينظر إلى عيني الهزيل مباشرة، ثم اعتدل بنفس البطء، وهو يقول في وحشية:

- بعد ساعة، في ملعب الاسكواش.

أطلت من عيني الهزيل نظرة خائفة متسائلة حائرة، فعاد المتنمر يميل بجسده الضخم نحوه، متابعًا:

- هناك اعتدت أن أسحق خصومي، بعيدًا عن أعين الشهود.

غمغم، وهو ينكمش أكثر:

- هذا غير قانوني.

ارتسمت ابتسامة ساخرة وحشية، على شفتي المتنمر:

- أيخشى القط المواجهة؟!

قال في حدة، على الرغم من انكماشه:

- ما من قط يخشى مواجهة فأر.

قهقه المحيطون بهما هذه المرة، على نحو احتقن معه وجه المتنمر، الذي صاح في شراسة:

- علام تقهقهون؟!

كتم الكل ضحكاتهم على الفور، وتراجعوا في خوف واضح، في حين اشتعلت عينا المتنمر، وهو يقول:

- بعد ساعة في ملعب الاسكواش أيها القط.. داعب ذيلك الآن؛ فهي آخر مرة سيمكنك فيها هذا.

قالها، واستدار مغادرًا في حدة، في حين بقي من يحيطون بالهزيل، وقد توقفت ضحكاتهم، واختفت نظرة السخرية من عيونهم، وحلت محلها نظرة أخرى..

نظرة أسى..

وإشفاق..

كان الكل يتوقع أن يطلق الهزيل ساقيه للريح، ويعدو عائدًا إلى منزله..

وألا يعود إلى الكلية مرة أخرى..

ولهذا فقد أصابهم الذهول، عندما رأوه بعد ساعة واحدة، يتجه نحو ملعب الاسكواش..

حيث ينتظره المتنمر..

«إذن فقد أتيت؟!..»

قالها المتنمر في دهشة وحشية، وابتسم رفيقاه، اللذان لا يقلان عنه ضخامة، قبل أن يضيف:

- ولم تُحضر معك شاهدًا واحدًا.

غمغم الهزيل:

- شاهداك يكفيان.

مال الضخم نحوه في شراسة:

- هيئتك، عندما تخرج من هنا، ستكفى.

غمغم الهزيل، وقد بدا هادئا، على عكس المتوقع:

- المهم أنني سأخرج من هنا.

ثم أضاف في صرامة:

- على عكسك.

انتفض جسد المتنمر في غضب ودهشة، قبل أن يلوح بقبضته في الهواء، هاتفًا:

- فليكن.. سأنهي هذه المواجهة بلكمة واحدة.

قبل أن تهوى قبضته، كشف الهزيل صدره..

وتوقفت قبضة المتنمر في الهواء..

لقد اختفى الوشم..

وشم القطة..

وفي نفس اللحظة، ارتفع ذلك المواء الضخم من خلفهم، فالتفت المتنمر ورفيقاه، وصرخ الثلاثة في رعب..

فعلى مسافة نصف متر منهم، كانت تقف قطة..

ولكن ليس في حجم القطة..

كانت في حجم ثور هائل، وعيناها تنظران إليهم مباشرة..

وفي غضب، قال الهزيل:

- قلتها لك.. أنت مجرد.. فأر.

مع آخر حروف كلمته، انقضت قطته..

وقبل أن يتحرك أحد، التهمت ذراع المتنمر، الذي أطلق صرخة عالية، وسقط أرضًا، والدماء تنزف من موضع ذراعه كالشلال..

وبكل الرعب، حاول رفيقاه الهرب، ولكن مخالب تلك القطة الهائلة ضربتهما.

فطارا في الهواء، وارتطما بجدار الملعب، والدماء تتفجر من صدريهما..

وبكل الرعب، صرخ المتنمر:

- لا.. لا.. ابعدها.

ولكن الهزيل لم يحرك ساكنًا، في حين مالت قطته، وأخرست المتنمر بوسيلة بسيطة..

التهمت رأسه حتى كتفيه..

نصف ساعة استغرقتها، في التهام فرائسها الثلاث، قبل أن تلعق ما تناثر من دمائهم، ثم راحت تلعق شفتيها وجسدها في استمتاع..

وفي هدوء، أشار الهزيل إلى صدره، فوثبت القطة، وتقلص حجمها في سرعة، حتى صارت مجرد وشم على صدره..

جده كان على حق..

سيحميه وشمه دوما..

ذلك الوشم المفترس، الذي ينطلق من عقاله، إذا ما فاض غضبه..

وهو أضعف من أن يواجه هذا..

وأضعف من أن يخفى سلاحه السري..

الوشم.

القاتل..

رباه!!..

كيف يمكن أن يستعيد المرء ذكرياته، في موقف كهذا؟

كيف؟!..

أنا راقد على أرضية مكتبي، مغمض العينين، على بركة من الدم..

وأتنفس في صعوبة..

فكيف بالله عليكم؟!..

كيف؟!..

مازلت أذكر كيف كانت البداية..

من أنت؟....

سؤال ألقيته على ذلك الرجل، الذي فوجئت به يدخل مكتبي، في مساء اليوم، وبعد انصراف شريكي، وكل موظفي المكتب..

كان رجلا طويل القامة، حاد القسمات، له شارب رفيع مستفز..

وكان يرتدى حلة سوداء تمامًا..

ولم يجب سؤالي..

فقط وقف عند باب حجرة مكتبي، يعقد كفيه أمامه، ويتطلع إلى مباشرة، على نحو جعلني أسأله مرة أخرى في عصبية:

- من أنت؟ ...وماذا تفعل هنا، في هذه الساعة؟!

واصل صمته وتطلعه إلى لحظات، قبل أن يجيب في صوت عميق:

- لم يكن ينبغي أن تسرق تلك الصفقة، من (عادل) باشا.

انعقد حاجباي في شدة، وأنا أتطلع إليه في دهشة..

(عادل) باشا هذا، كما يطلقون عليه في سوق العمل، هو أخطر منافس لشركتنا في هذا العالم..

والصفقة، التي نجحت في انتزاعها منه، صفقة ضخمة بحق..

صفقة تستحق أن يغضب ويثور..

"إنه عمل.. وكل شيء مباح في العمل.."..

قلتها في صرامة، فابتسم ذلك الرجل الغامض، ورفع قدمه على أفضل مقعد لدى، وهو ينظر إلى في سخرية شرسة:

- هذا أكبر خطأ، ارتكبته في حياتك.

تطلعت إليه لحظة، قبل أن أقول في تحفز:

- في هذه الصفقة بالذات، لم أرتكب أية أخطاء.. كل شيء كان سليمًا وقانونيًا تمامًا.. (عادل) باشا عرض سعره، ونحن عرضنا سعرنا، و(المنوفي) باشا عرض سعره.. وكنا نحن الأفضل.

قال في برود:

- (المنوفي) لقي مصرعه في حادث سيارة، قبل يوم فتح المظاريف.

قلت، في شيء من الحدة:

- ولهذا لم يبق سوانا، و (عادل) باشا.

قال في صرامة:

- كان ينبغي أن تنسحبوا، بعد مصرع (الفيومي).

اختلست نظرة إلى الكاميرا السرية في أعلى الجدار، قبل أن أجيب:

- شريكي اقترح هذا، وأصر عليه، دون سبب مفهوم، ولكنني رفضت بشدة.

قال في صرامة أكثر:

- وتحدَّيت (عادل) باشا.

شعرت بالغضب يتصاعد في أعماقي، وأنا أهتف به:

- وما شأنك أنت؟!.. دخلت مكتبي دون استئذان، بعد انصراف الموظفين، وتتحدث عن أمور خاصة جدا.. قل لي سببًا واحدًا، يدفعني لاحتمالك.

أخرج يده من جيبه، ممسكة بمسدس كبير، من طراز (سميث ويسون)، وهو يقول متحديا:

- أهذا يكفي؟!

اختلست نظرة سريعة أخرى إلى الكاميرا السرية، قبل أن أقول في عصبية:

- هل أتيت لهذا؟!

ابتسم ابتسامة مقيتة، وهو يقول:

- هل سمعت عن (س)؟!

كنت بالطبع قد سمعت عن (س)..

الكل سمع وقرأ عنه..

إنه قاتل محترف، من طراز لم تعرفه (مصر) من قبل..

تحقيقات الشرطة تقول: إن جرائمه توحي بأنه شديد الذكاء..

منعدم المشاعر..

سيكوباتي النزعة..

يختار ضحاياه دون نمط ثابت، وكأنه يقتل لمجرد القتل..

أو أنه يستمتع بالقتل..

وبالدم..

خبراء علم الجريمة قالوا: إنه ليس مجرمًا أو قاتلًا تقليدًا..

ولا يمكن أن ينتمي لأوساط المجرمين المعروفة..

فجرائم القتل التي ارتكبها، لم تقترن قط بالسرقة..

إنه لا يمسّ أي شيء مما تحمله ضحيته..

فقط يقتل..

وليس على نحو مباشر..

إنه أشبه بالقط..

ليس القتل هو هدفه الرئيسي..

ولكن الاستمتاع بالقتل هو كذلك..

ففي كل مرة، تكون ضحيته وسط بركة من الدم..

وهذا يعني أنها لا تموت مباشرة..

فالموت يعنى توقف القلب، وانعدام وسيلة ضخه خارج الجسد..

الدماء الغزيرة تعنى أن الضحية عانت بعض الوقت، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة..

ربما يريد أن يراها تموت..

وأن يستمتع بلحظاتها الأخيرة..

أو أنه يستعذب رؤية الدماء القانية تتدفق منها..

سادية عجيبة..

ربما عذبه أحدهم كثيرًا في طفولته..

أو في مراهقته..

مر كل هذا بذهني في لحظة، وكان يمكن أن يتواصل، لولا أن قطع ذلك الغامض أفكاري، وهو يقول في حدة:

- ألم تسمع عنه؟!

غمغمت في حذر:

- ومن لم يسمع عنه؟!

ابتسم في زهو، وهو يلوح بمسدسه، قائلًا:

- هل تصورت أن تلتقي به يومًا؟!

لم أجب سؤاله، وأنا أتطلع إليه في صمت، فتابع مستعيدًا صرامته:

- يقال إنه يستمتع بقتل ضحاياه.

غمغمت:

- هذا أكيد.

داعب المسدس في يده لحظات، خفض خلالها عينيه، فانتهزت الفرصة؛ لأنظر مباشرة إلى الكاميرا السرية، ولكنه رفع عينيه إلى في حركة مفاجئة:

- إلى ماذا تنظر؟!

قالها في عصبية غاضبة، فاعتدلت في سرعة:

- لا شيء.

أدار عينيه إلى حيث كنت انظر، وهتف في حدة:

- كاميرا سرية؟!

لم أجب هذه المرة أيضًا، فأدار فوهة مسدسه، وأطلق النار على الكاميرا الصغيرة، وأصابها بدقة تستحق الإعجاب..

كان صوت رصاصته مرتفعًا، ولكنه لم يؤثر بي كثيرًا..

حتى تحطم الكاميرا السرية، لم يؤذني كما يفترض..

شعرت أنها أدت عملها كما ينبغي...

وفي خفوت، غمغمت:

- الصوت مرتفع.. شريكي قد..

قاطعني في حدة:

- لا تعتمد على شريكك.

تراجعت في دهشة، فأكمل بنفس الحدة:

- شريكك هو الذي استأجرني لأقتلك.

تراجعت مصدومًا، وأنا أهتف:

- شريكي؟!.. ولكن..

قاطعني في عصبية:

- كان ينبغي أن تستمع إليه، عندا أصر على الانسحاب من الصفقة، بعد مصرع (المنوفي).. (عادل) باشا غضب بشدة، عندما فزتما بالصفقة، وخيره بين أن يقتله، أو يقتلك هو.

غمغمت مصدوما:

- شريكي!!.

قال شامتا:

- نعم.. شريكك.

لابد وأن أثر الصدمة بدا واضحًا على ملامحي، فقد صمت لحظة، قبل أن يتابع في شماتة واضحة:

- من أين تظنني عرفت إنك ستكون وحدك هنا الليلة إذن؟!

شريكي..

نعم.. شريكي هو الذي كان يعلم هذا..

أو هو الذي دفعني إلى هذا..

المذكرة التي طلب منى إعدادها قبل الغد، كانت تضطرني للبقاء وحدي في المكتب، بعد انصراف كل الموظفين..

شريكي كان يعلم..

وهو الذي فعلها..

شعرت بغضب شديد، يسري في كياني كله، واحتقن وجهي في شدة، مما دعا ذلك الوغد إلى الانفجار ضاحكا، وهو يقول:

- صدمة.. أليس كذلك؟!

مرة أخرى لم أجب، فتابع، وهو يرفع مسدسه نحوي في مقت:

- أنتم يا رجال الأعمال، تتصورون أنفسكم أذكى ذئاب الأرض، ولا تتخيلون لحظة أن تكونوا مجرد خراف.

تطلقت إليه في مقت، دون أن أجيب، فصوب مسدسه نحوي، وهو يستطرد:

- كم أحب رؤية وجوهكم، عندما تخسرون.. أنت ربحت تلك الصفقة، ولكنك خسرت حياتك.

"أنت كاذب.."

قلتها في بطء وغضب، جعلاه يرددها في دهشة:

- كاذب!!

قلت في صرامة:

- (المنوفي) لم يمت في حادث سيارة.

ابتسم في سخرية:

- أنت لا تقرأ الصحف إذن.

أضفت، دون الالتفات لتعليقه:

- وأنت لست (س).

جذب إبرة مسدسه، وهو يقول:

- ومن أدراك.

دوت ثلاث رصاصات متتالية في المكتب، ورأيت جسده ينتفض في عنف، من فرط المفاجأة والألم، وعيناه تتسعان، مع الدماء التي تدفقت من ثقوب الرصاصات في بطنه..

الرصاصات التي أطلقتها عليه، من المسدس الذي كنت أحمله طوال الوقت، تحت سطح مكتبي..

شاهدته يسقط، وهو يتأوه، ومسدسه يتدحرج على الأرض مبتعدًا عنه، فنهضت حاملًا مسدسي، الذي مازال الدخان يتصاعد من فوهته، وأنا أقول مكملًا:

- لأني أنا (س).

درت حوله، وهو يلهث، ويلفظ أنفاسه الأخيرة، وأكملت في هدوء، والدم يصنع بركة كبيرة حوله:

- (المنوفي) لم يمت في حادث سيارة، لأنني أنا قتلته، ووضعته في سيارته؛ ليبدو الأمر كذلك.

شهق ثلاث مرات، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة..

كانت أول مرة أقتل فيها شخصًا، كرهته بحق..

ربما لهذا فعلت ما فعلته.

رقدت على أرضية المكتب، فوق البركة التي صنعها دمه، وتلاحقت أنفاسي وتناقلت، من فرط الانفعال والحماس..

ولكن لا ينبغي لي أن أستسلم لمشاعري طويلًا..

ذلك الأحمق صورته الكاميرا السرية وهو يهددني، ويذكر أمر صفقة (عادل) باشا الخاسرة..

وهذا دليل براءتي، ودليل دفاعي عن نفسي بقتله..

وهو دليل على عادل (باشا) أيضًا..

ولكن هذه النقطة الأخيرة لا تهم كثيرًا..

الأحمق حطم الكاميرا، حتى لا تسجل مشاهدي وأنا أقتله..

وبعد أن ينصرف رجال الشرطة، سأذهب لقتل (عادل) باشا..

أما شريكي العزيز، فسأعد له ميتة خاصة..

ميتة تليق بخائن خان شريكه..

القاتل.

مركب صيد..

احتضنت (نجوى) زوجها في حرارة، وطبعت قبلة دافئة على خده، وهي تقول في نعومة:

- عندما تصل إلى (إيطاليا)، اتصل بي.

ابتسم زوجها (فؤاد) ابتسامة مضطربة، وهو يغمغم:

- المهم أن أصل حيًا.

طبعت قبلة أخرى على حدة، قائلة بابتسامة، حاولت أن تجعلها مشجعة:

- ستصل بألف سلامة بإذن الله.. قبطان المركب ابن عمى (على)، ولقد أوصيته بشأنك.

قال بابتسامة مريرة:

هذا لم يمنعه من تقاضي ألفي جنيه، نظير نقلى إلى شواطئ (إيطاليا).

ضاق حاجباها، وهي تقول:

- إنه عمله.

قال في شيء من العصبية:

- عمل غير مشروع.

زمجرت هاتفة:

- ولكنه عمل.

زفر في عصبية وتوتر، وهو يتطلع إليها..

جميلة رقيقة وناعمة هي..

كم كان محظوظًا حينما تزوجها..

كل شبان الحي كانوا يتنافسون لنيل رضاها..

ولكن هو وحده فاز بها..

والده رحمه الله، كان صديقًا حميمًا لوالدها، مما جعله يسعى لزواجه بها..

وقد كان..

ولقد اعتبر نفسه محظوظًا، وهو يجلس إلى جوارها ليلة الزفاف..

وشعر أنه في الجنة، عندما ضمتهما غرفة واحدة..

ولقد انبهر بها، وأحبها بجنون..

ولكن العكس لم يكن صحيحا..

منذ الليلة الأولى، لم يشعر بشيء من الحب منها تجاهه..

وحتى هذه اللحظة، لم يشعر بهذا أبدًا..

كانت تؤدي كل واجباتها كزوجة، دون شكوى أو تذمر..

ولكن بدافع الواجب..

فقط الواجب..

وليس أبدأ بدافع الحب..

عام كامل قضاه معها، لم يشعر فيه بحبها أبدًا..

ولقد سعى لنيل هذا الحب..

وبكل وسيلة ممكنة..

غمرها بحبه..

ودفئه..

وحنانه..

وهداياه..

فعل كل ما باستطاعته..

وفشل..

لم ينل حبها أبدًا..

وإنما نال ضيقها..

ضاقت به؛ لأنه متدله في حبها، خاضع إرادتها، ضعيف أمامها..

ولأنه فاشل..

فمن كثرة ما شغل نفسه بها، وأنفق مدخراته في سبيلها، فشل في عمله،

وخسر ماله..

وعندئذ بدأت الخلافات..

حياتهما صارت جحيما، على الرغم من كل محاولاته..

وأصابه اليأس..

والحزن..

والإحباط..

ثم كان ذلك الاقتراح..

"لماذا لا تسافر، كما يسافر الكل؟...."

طرحت عليه السؤال ذات ليلة، بعد مناقشة عن ضيق ذات الحال، وقلة الدخل..

وفي إحباط، غمغم:

- السفر ليس سهلا..

قالت في حدة:

- جارنا سافر، وابن جارتنا سافر، وحتى شقيق صاحب متجر البقالة سافر..

غمغم في يأس:

- يدي على كتفك.

صمتت بضع لحظات مفكرة، ثم قالت في حماس:

- ابن عمى (على).

توتر عندما سمع اسم (على)، وقال في حدة:

- ما شأنه.

قالت في حماس:

اعتاد نقل الشباب من هنا، إلى سواحل (إيطاليا).

قال في عصبية:

- تقصدين أنه يقوم بتهريبهم.

انعقد حاجباها، وهي تقول:

المهم أنهم يرسلون الأموال إلى عائلاتهم هنا.. (ناجي) ابن عم (حسين)، أرسل لوالده ما ابتاع به فدانين من الأرض، و(ثروت) ابن (عبد الحكيم)، أرسل لوالده ثمن سيارة أجرة، و..

هتف بها:

- كفى

قالت في حزم:

- سأتصل بـ (على) صباحًا.

ضاق كثيرًا بالأمر..

ولكنه لم يعترض..

وحتى لم يناقش..

فمشاعره نحو (على) بالذات سلبية للغاية..

لأن الكل يقول: إن علاقة عاطفية، كانت تجمعه بزوجته (نجوى)..

سمع هذا كثيرًا..

وتحاشي (على) هذا منذ زواجه..

وها هي ذي تذكر اسمه..

وتذكر أنه يحمل الحل في يده...

وهو عاجز من الاعتراض..

فالواقع أنه، وعلى الرغم من كراهيته هذا، ليس لديه سوى هذا الأمل..

السفر..

وليس هناك من سبيل آمن، سوى مع (على)..

"سننطلق الآن..."..

قالها (على) في حزم، فابتعدت عنه زوجته (نجوى)، قائلة:

- لا تنس.. اتصل فور وصولك.

لوح لها بيده، في حين جذبه (على) نحو مركب الصيد، الذي يرسو بالقرب منهم، و(نجوى) تهتف به:

- احرص عليه جيدا يا (على).

قال (على) في صرامة:

- وعدتك أن أفعل.

تحرك مركب الصيد، ولوح لها تلويحة أخيرة، قبل أن يبتلعهم الظلام..

وفي ركن مركب الصيد، انكمش على نفسه، حتى جاء (على)، وجلس إلى جواره، يسأله:

- ماذا يقلقك؟!

غمغم متوترا:

- يقولون إنك تنزل المسافرين بالقرب من الشاطئ، وتتركهم يسبحون باقي المسافة.

قال (على) في هدوء:

- هذا صحيح.

تراجع في هلع:

- هل يعني هذا أنني سأسبح؟!

ابتسم (على) ابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- اطمئن.. لن تسبح.

تساءل في حذر متوتر:

- وكيف هذا؟!

مال (على) نحوه، هامسًا:

- (نجوى) أوصتني عليك.. ولقد وضعت لك ترتيبًا خاصًا.

تساءل في حذر أكثر:

- وكيف سيكون؟!

اتسعت ابتسامة (على)، وهو يقول:

- لا تقلق نفسك.. اطمئن.

قالها، ثم نهض ليمارس شئونه، كقبطان مركب صيد غير شرعي، وتراجع هو مستندًا إلى سور المركب، وهو يفكر في عمق...

(على) يعامله بمنتهى الود، وعلى الرغم من هذا، لا يستطيع منع نفسه من كراهيته.. إنه يعتبره سببًا رئيسيًا لعجز (نجوى) عن حبه..

وكم يتمنى الخلاص منه..

برزت الفكرة في ذهنه فجأة، وهو يتطلع إلى (على)..

ماذا لو انفرد به، على سطح مركب الصيد؟ ...

ظلام الليل سيخفى كل ما يفعله به..

تحسّس قطعة معدنية كبيرة إلى جواره، وراح يرسم خطته..

فكل لحظة وأخرى، يأتي (على) للاطمئنان عليه..

وفي موقعهما، يكونان معزولين تمامًا عن باقي المركب..

وكل ما يحتاجه هو أن يهوى على رأسه بقطعة المعدن، ثم يرميه من حاجز المركب..

ومع غيبوبته، سيبتلعه البحر في لحظات..

وسيتخلص منه..

وإلى الأبد..

استعدوا.. لقد اقتربنا...

قالها على، وهو يتحرك على سطح مركب الصيد في نشاط، فنهض الجميع، وحملوا حقائبهم، التي وضعوها داخل أجوله من البلاستيك؛ حتى لا يتسرب إليها الماء، وارتدوا سترات الهواء، واستعدوا للقفز في الماء، عندما لاحت أضواء شواطئ (إيطاليا)، في حين اقترب منه (على)، وهمس في أذنه:

- انتظر انت.

تحسس قطعة المعدن الثقيلة، وهو يهمس:

- سنبقى معًا هنا.

ابتسم (على)، وهو يهمس:

- أخبرتك أنني أعددت لك وسيلة خاصة.

أمسك قطعة المعدن في حذر، وهو يتابع رفاقه، الذين قفزوا في الماء، يعاونهم البحارة، وبدأوا السباحة نحو سواحل (إيطاليا)، في حين أولاه (على) ظهره، يتابع الموقف مثله..

وبكل قوته، أمسك قطعة المعدن، و..

"ماذا حدث؟!.."..

ألقت (نجوى) السؤال، وهي تمسح دموعها، فأتاها الجواب هادئًا:

- الضربة شجت رأسه، فربطت قدميه في قطعة الحديد الثقيلة، وألقيته في البحر.

قالت باكية:

- مسكين

أتاها الجواب عصبيًا:

- كان يحول بيني وبينك، واستحق القتل.

مسحت دموعها، وهي تسأل:

- وكيف سنبرر الأمر للناس؟!

هز كتفيه مجيبا:

- لقد أصابه ما يصيب الكثيرين.. غرق وهو يحاول الوصول سباحة لساحل (إيطاليا).

ثم احتواها على بين ذراعيه، مستطردا:

- وبعد انقضاء العدة سنتزوج، كما خططنا مسبقًا.

تملصت منه في نعومة:

- ولكنني سجلت كل قلته.

سألها في توتر:

- ماذا تعنين؟!

انغرز خنجرها في قلبه، فاتسعت عيناه عن آخرهما، وحدق فيها في ألم وذهول، وهي تبتعد عنه، مضيفة:

- قتلت زوجي، وأتيت للاعتداء على، فدافعت عن نفسي.. وقتلتك.

سقط على ركبتيه، وهو يقول ذاهلا مصدومًا:

- أنتِ يا (نجوى)!

راقبته في صمت، حتى انهار جثة هامدة، ثم طلبت رقمًا سريعًا، وقالت:

- الخطة سارت كما خططنا يا حبيبي.. كلاهما لقى مصرعه، وبعد انقضاء العدة، سأبتاع لك مركب الصيد، الذي كنت تحلم به، في نفس ليلة زفافنا.. انتظرك على نار.

وأنهت المحادثة، وهي تلتقط نفسًا عميقًا، قبل أن تطلب رقم الشرطة، وتلقى بلاغها، وهي تبكي في حرارة..

صادقة.

الظلام..

إرهاق شديد، ذلك الذي شعرت به (نهى)، وهي تستيقظ في ذلك الصباح..

إرهاق شمل جسدها كله..

وكيانها كله..

كل خلية في جسدها كانت تشعر بالإرهاق..

حتى عقلها..

وذهنها..

تثاءبت في صعوبة، وانقلبت على جانبها، واضعة كفيها تحت خدها الأيسر، وهي تستعيد ذلك الكابوس الرهيب، الذي حرمها النوم، وكان سببًا لما تشعر به من إرهاق..

لقد رأت نفسها في كابوسها، وهي تسير وسط غابة مخيفة..

غابة تشابكت أغصان أشجارها، على نحو عجيب..

وكل الأغصان وفروعها، كانت تمتلئ بالأشواك..

أشواك حادة مدببة..

وضوء خافت مخيف، ينبعث في مكان بعيد..

بعيد للغاية..

والأرض مغطاة بأوراق الشجر الميتة..

وببقايا أغصان..

وأشواك..

وعندما خطت خطوتها الأولى، كادت تصرخ من الألم..

فبقايا الأغصان مازالت تحتفظ بأشواكها..

لم يكن ينبغي أن تتحرك، خاصة وقد انتبهت فجأة إلى أنها حافية القدمين..

وأنها ترتدي ملابس النوم..

وفي ذهنها، فكرت في أنه من الأفضل أن تظل في مكانها..

ولكن تلك الأنفاس المخيفة كانت تتردد من خلفها..

أنفاس أشبه بمزيج من أنفاس ذئب جائع، وزمجرة دب مفترس، وفحيح أفعى سامة..

لم تكن تدري من أين تأتى تلك الأنفاس!!..

ولم تجرؤ على الالتفات لرؤية مصدرها..

ولكنها كانت تقترب من خلفها..

وتقترب..

وتقترب..

وهذا لا يترك لها سوى قرار واحد..

أن تتقدم إلى الأمام..

فوق الأشواك الحادة..

ومع اقتراب تلك الأنفاس، تحركت..

ووخزتها الأشواك..

ولكنها سارت..

وتعذبت..

وتألمت..

والأسوأ أن الإضاءة راحت تنخفض..

وتنخفض..

وزاد هذا من رعبها وفزعها..

وزاد من سرعتها..

وآلامها..

وعذابها..

ومع انخفاض الإضاءة، صارت الرؤية شبه معدومة، وتلك الأنفاس تقترب أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وأكثر..

ثم أظلمت الدنيا تمامًا..

وارتطم جسدها بأشواك الأغصان الحية..

وتضاعف الألم عشرات المرات..

ومن خلفها، اقتربت تلك الأنفاس المخيفة، وامتزجت بأنفاسها اللاهثة المذعورة..

ثم تحولت الأنفاس المخيفة إلى صرخة وحشية..

وشعرت بشيء ينقض عليها وسط الظلام..

وانتفض جسدها..

وصرخت..

واستيقظت..

وعندما فتحت عينيها، انتفض جسدها مرة أخرى..

فقد كان الظلام يسود المكان..

تحسست بيدها الطريق إلى زر المصباح المجاور للفراش، وإضاءته وهي ترتجف، فظهرت أمامها ملامح حجرتها المألوفة..

وتنفست (نهى) الصعداء..

وحاولت أن تسترخي..

حاولت..

وحاولت..

وحاولت..

ولكن الأمر لم يكن هينا..

الكابوس كان قد ترك أثره في جسدها، الذي لم يتوقف عن الارتجاف..

واستغرق الأمر منها قرابة نصف الساعة، قبل أن يستسلم عقلها للنوم مرة أخرى..

نفس الغابة..

ونفس الضوء الخافت..

ونفس الأنفاس المخيفة من خلفها..

ونفس الرعب..

والألم..

والعذاب..

الفارق الوحيد هذه المرة، هو أنها رأت أمامها، على الرغم من الضوء الخافت، ممرًا واضحًا، وسط الأغصان المتشابكة..

وبكل رعبها، اتجهت نحو ذلك الممر..

لم تكن تدري إلى أين يقودها..

ولكنه كان السبيل أمامها..

السبيل الوحيد..

اتجهت نحوه بقدميها الحافيتين..

داست على الأشواك، وتحملت الألم والعذاب، والضوء يزداد خفوتًا، والأنفاس المخيفة تقترب..

و..

وفجأة، وعلى الضوء شديد الخفوت، لمحت ذلك الباب، في نهاية الممر..

باب مألوف..

باب تراه كل ليلة..

باب يحمل نجمة ذهبية، وضعتها بنفسها، منذ أكثر من عشرة أعوام..

إنه باب حجرة نومها..

آه.. هذا هو المخرج حتمًا..

ذلك الباب هو رمز لخروجها من ذلك الكابوس..

لو أنها بلغته، وفتحته، ستخرج من كابوسها..

مع الفكرة، زادت من سرعتها، وسالت الدماء من قدميها، من فرط جروح الأشواك الحادة..

وتزايد الضوء خفوتا..

واقتربت الأنفاس الوحشية..

ولكن الباب اقترب..

لم يعد يفصلها عنه سوى متر أو مترين..

ولكن الظلام ساد فجأة، وانعدمت الرؤية تماما، وانتفض جسدها..

وانقض عليها ذلك الشيء المخيف..

واستيقظت..

استيقظت لاهثة، شاحبة الوجه، زائغة العينين..

وبسرعة، أضاءت المصباح، وحدقت في حجرتها، وكأنما تتيقن من أنها مازالت داخلها بالفعل..

لماذا ذلك الكابوس الرهيب؟!..

أهو بسبب وجبة تناولتها؟!..

ولكنها لا تتناول أية وجبات، بعد السابعة مساء..

ولو فعلت، فهي دوما وجبة خفيفة..

فلماذا هذا الكابوس؟!..

فتحت درجًا مجاورًا للفراش، والتقطت منه قرصًا مهدئًا للأعصاب، ثم عادت ترقد على فراشها، وهي تخشى أن تنام..

تخشى أن يهاجمها الكابوس مرة أخرى..

تخشى هذا بشدة..

عقارب الساعة كانت تشير إلى الثالثة صباحًا، ولكنها قررت أن تظل مستيقظة حتى الصباح..

سيصيبها هذا بالإرهاق حتمًا..

ولكنه أفضل ألف مرة من كابوسها..

جلست على فراشها، وحاولت أن تنشغل بأي شيء، يمنعها من النوم، إلا أن جفنيها تثاقلا، ورأسها دار، وراحت تقاوم النوم في استماتة..

وعلى الرغم من هذا، فقد استسلمت للنوم..

ها هو ذا اباب حجرتها يبدو واضحًا، في نهاية الممر..

ولكن المسافة بينها وبينه صارت أبعد..

والأشواك صارت أكثر حدة..

والأنفاس المخيفة صارت أكثر وحشية..

ولكنه المخرج الوحيد..

احتملت كل الألم والعذاب، واندفعت نحو الباب..

ها هو ذا يقترب..

وها هي ذي تبلغه..

وفي لهفة، مدت يدها نحو أكرة الباب..

ولكن الظلام الدامس أحاط بها مرة أخرى..

وانقض ذلك الشيء من خلفها..

وصرخت..

وانتفضت..

واستيقظت..

في هذه المرة، لم تحتمل البقاء في الفراش..

لم تعد تحتمل النوم، بأي حال من الأحوال..

ولهذا فقد غادرت فراشها، ودست قدميها في خُف منزلي من الفراء، وقررت أن تتناول كوبًا من اللبن الدافئ؛ ليساعدها على النوم..

كان المصباح المجاور للفراش يرش ضوءه في الحجرة، واكتفت هي به، وهي تتجه نحو باب حجرتها وتفتحه، وتخطو خارج الحجرة، و..

وتوقفت مبهوتة ذاهلة..

إنه ليس منزلها..

إنها تلك الغابة..

الغابة الرهيبة المخيفة، بأغصانها المتشابكة، وأشواكها المؤلمة..

أهي مازالت نائمة، أم..

قبل أن تتم عبارتها، سمعت صوت باب حجرتها يغلق من خلفها بصوت مسموع، جعلها ترتجف، ثم تنتفض في عنف، مع ارتفاع صوت تلك الأنفاس الرهيبة..

قرصت ذراعها، فشعرت بالألم، الذي ثبت لها أنها لا تحلم، ولا تعيش كابوسا، فصرخت:

- ماذا يحدث لي؟!

ومع صرختها، حل الظلام الدامس فجأة.

وانقض ذلك الشيء من خلفا، وهو يطلق زمجرة وحشية رهيب، و...

"اختفت تمامًا...".

قالتها خادمة المنزل وهي ترتجف، في وجهة ضابط الشرطة، الذي قال في صرامة:

- حجرتها مغلقة من الدخل، وخالية تمامًا، والمصباح المجاور للفراش مُضاء، ولكن لا أثر للسيدة (نهى).

وصت لحظة، ثم أضاف، في عصبية متوتر:

- الناس لا تختفي هكذا، دون أن تترك أثرًا.

غمغم فني المعمل الجنائي:

- ولا توجد أية دلائل على وجود مقاومة.

شحب وجه الخادمة، وهي تقول:

- أقسم أنني لم أجدها.. إنها مصابة بمرض في عمودها الفقري، يجعلها تشعر بالألم مع سيرها، ولقد وضعتها في الفراش مساء أمس، وفي الصباح، رحت أطرق الباب، الذي لم تعتد إغلاقه من الداخل، فلما لم تستجب، أبلغتكم.

كرر الضابط في عصبية:

- ولكن الناس لا تختفي هكذا.

غمغم فني المعمل:

- ربما اختطفها أحدهم.. أمس كان ليلة غاب فيها القمر، وساد ظلام دامس غير طبيعي، وربما..

قاطعه الضابط في صرامة عصبية:

- الظلام؟.. أي كلام عبئي هذ يا رجل.. من في مثل عمرنا يمكن أن يخشى الظلام؟!.. وما الذي يمكن أن يفعله الظلام.. هل يمكنك أن تجيبني؟!

ولم يجبه فني المعمل..

فقط اكتفي بابتسامة شاحبة، وهو يتساءل في أعماقه:

- نعم... من في مثل عمريهما، يمكن أن يخشى الظلام؟!

وأي شيء يمكن أن يفعله مجرد ظلام؟!..

أي شيء؟!.

السفاح..

أخيرًا وقع في أيدينا..

شعور عجيب، ذلك الذي سري في كياني كله، وأنا أراه يجلس أمامي، في حجرة مكتبي، ومعصماه محاطان بأغلال فولاذية قوية..

أشهر طويلة وهو يرتكب جرائمه الوحشية..

بلا رحمة..

أو شفقة..

أو حتى ذرة من المشاعر..

وفي براعة مذهلة، على الرغم من كراهيتي الاعتراف بهذا..

فكل من قتلهم، من كبار رجال الاعمال..

وكبار السياسيين..

والمشاهير..

وكلهم من ذوي الفكر والرأي..

كان كأي قاتل متسلسل، يختار ضحاياه دومًا من نمط بعينه..

ولم يكن من العسير تحديد نمطه هذه المرة..

فكل من قتلهم من أصحاب الرأي الحُر..

لا أحد منهم ينتمي إلى حزب..

أو جماعة..

أو حتى رابطة..

وبعد أن حددنا نمطه، فرضنا حراسة مشددة على كل المستهدفين المرشحين..

ولكن ذلك لم يمنعه..

لقد واصل عمليات القتل..

دون أن يترك أدنى أثر..

ودون أن تعرف كيف دخل..

أو كيف خرج..

ولكن آخر جرائمه بالتحديد، هي ما أصابنا جميعًا بالذهول..

فالمستهدف للقتل كان سياسيًا شهيرًا، يقيم في فيلا شديدة الحراسة..

ولقد ضاعفنا هذه الحراسة من جانبنا..

حتى حجرته الشخصية، وضعنا ضابطًا وليس جنديًا على بابها، وآخر عند نافذتها الوحيدة، وثالث في الممر، ورابع عند مدخل الحديقة..

هذا بالإضافة إلى كاميرات تصوير في كل ركن..

داخل وخارج الفيلا..

ثم انقطع التيار الكهربي لحظة..

لحظة واحدة وليس أكثر..

لحظة سمعنا فيها صرخة السياسي..

ثم عاد التيار الكهربي..

وكان السياسي قتيلا، مذبوحًا، متسع العينين في رعب هائل..

وأصابنا الذهول جميعًا..

لقد فتشنا الفيلا ثلاث مرات، من سطحها وحتى بدرومها..

وراجعنا كل ما صورته الكاميرات..

والمعمل الجنائي قضى يومين في فحص كل سنتيمتر من الفيلا..

ولم نصل إلى شيء..

أي شيء..

هذه الحادثة جعلت حتى بعض الضباط، من ذوي الرتب الكبيرة، يميلون إلى الاعتقاد بأن الرجل ليس بشريًا..

بل عفريت..

وعلى الرغم من سخافة الفكرة، فقد انتشرت على نحو عجيب..

ولم يكن هناك سوى سبيل واحد؛ إزاحة هذه الفكرة الحمقاء من الأذهان..

أن نلقى القبض عليه..

وبأقصى سرعة..

ولقد بذلنا جهدًا رهيبًا حتى حدثنا هدفه التالي..

وقمنا بعمل ضعف احتياطات المرة السابقة..

أضواء كاشفة قوية..

كاميرات في كل ركن..

وكل زاوية..

وكل ممر...

وحتى كل حجرة..

فرقة كاملة من الجنود والضباط في كل مكان..

وفي هذه المرة حدثت المعجزة..

وسقط السفاح..

ولم نصدق أنفسنا..

ليس فقط لأنه سقط أخيرًا في أيدينا..

ولكن أيضًا لأنه سقط في سهولة كبيرة..

أسهل بكثير مما كنا نتصور..

وها هو ذا أخيرًا يجلس أمامي، في زي أسود، بلون ليلة غاب فيها القمر، وهادئًا متماسكًا، حتى أنني أزعم أنني قد لمحت شبح ابتسامة ظافرة، عند ركن شفتيه..

ابتسامة ظافرة؟!..

يا له من قول، يستحيل أن ينطبق على سفاح، سقط في قبضة الشرطة..

"لقد أتعبتنا كثيرًا..."

قلتها في صرامة، وأنا أشير إليه، فابتسم في استهزاء، وهو يجيب في هدوء:

- أمر طبيعي.

انعقد حاجباي، وأنا أقول في صرامة:

- أنت شخص مريض.

فوجئت به يطلق ضحكة ساخرة عالية طويلة، قبل أن يقول:

- وحدي المريض؟!.

ملت نحوه أسأله:

- ماذا تعنى بهذا؟!

أطلق ضحكة ساخرة أخرى، وقال في هدوء:

- كل البشر مرضى يا رجل... سل المختلين النفسيين، وسيخبرونك هذا.

تراجعت مغمغما في حيرة:

- المختلين النفسيين؟!

قهقه على نحو عجيب، مجيبا:

- قصدت بهذا أطباؤكم النفسيين.

غلغلت في دهشة:

- أطباؤنا؟!

لمرة أخرى، كرر قهقهته العالية المجنونة، على نحو جعلني أوقن من أنه مختل نفسيا..

ولم يرق لي هذا أبدًا..

فلو ثبت أنه مختل بالفعل، فسيعفيه هذا من العقاب، بعد كل ما فعله..

وهذا ليس عدلا..

على الإطلاق..

"لا.. لست مختلًا.."

انتفض جسدي مع قوله هذا، وقد بدا لى أنه يقرأ أفكاري، فقهقه ضاحكًا مرة أخرى، على نحو أوضح أنه قد لمح انتفاضتى، فهتفت مستثمرًا توتري:

- كيف فعلتها؟!

هز كتفيه، مجيبًا

- بكل سهولة.

قلت، دافعا بعض الصرامة إلى صوتي:

- كنا نحاصر المكان تمامًا.

مط شفتيه، وقال في هدوء:

- ما من حصار على الأرض، يمنعني من الوصول إلى ما أريد قلت، مضاعفًا صرامتي:

- كيف وصلت إلى السياسي إذن؟!

نظر في عيني مباشرة، على نحو أثار شيئًا من الخوف في نفسي...

لقد بدا لي وكأن عيناه تغوصان في أعمق أعماقي..

وتغوصان..

وتغوصان..

حتى تصلان إلى تلافيف مخي..

ومرة أخرى، انتفض جسدي، فالتمعت عيناه، وهو يقول:

- عبر الزمان والمكان.

قلت بكل الدهشة والحذر:

- ماذا؟

أجابني بقهقهته المستفزة، قبل أن يقول:

- ما خلفيتك العلمية ايها الضابط؟!

حاولت أن أكون صارمًا، وأنا أقول:

- وما شأنك بهذا؟!..

ولكن لهجتي لم تخرج صارمة.

أو حتى قوية..

لقد خرجت مضطربة..

مرتجفة..

خافتة..

وابتسم هو، مع إلتماعة عينيه..

المزيج من الابتسام والتماعة العينين، استفز مشاعري في شدة، وجعلني أقول له في غضب:

- لست ماهرا كما تتصور.

قال في استهزاء:

- حقا؟

أجبته في حدة:

- لا تنس أنك قد سقطت في قبضتنا في النهاية.

صمت لحظة بعد عبارتي هذه، ثم انفجر فجأة ضاحكًا..

وكانت ضحكته ساخرة..

للغاية..

وشعرت بالغضب أكثر وأكثر، حتى أنني صرخت به:

- هل تستطيع إنكار هذا؟!

توقف عن الضحك دفعة واحدة، وتطلع إلى عيني مرة ثانية..

وفي هذه المرة، كانت نظراته صارمة..

عنيفة..

قاسية..

وحشية..

ثم قال فجأة، في صرامة شديدة:

- لقد ألقيتم القبض على؛ لأنني أردت أن تفعلوا.

غضبت لعبارته المستكبرة هذه، فصحت به:

- كاذب ومغرور.

لم أدر ماذا أصابني، عقب قولي هذا!!

هل أصابني الجنون؟!..

أم فقدت الوعي؟!..

أم ماذا؟!..

ولكن ذلك السفاح اختفى من أمامي فجأة..

ثم ظهر إلى جواري، على بعد سنتيمترات فقط مني..

وكان حرا..

بلا قيود..

وكانت عيناه تلتمعان بمنتهى الشدة، وهو يقول:

- لو أنه لديك خلفية علمية، لأمكنك، أن تفهم.

تراجعت كالمصعوق، صارخًا:

- كيف فعلتها؟!

التمعت عيناه أكثر، وهو يطلق ضحكة قصيرة، قبل أن يتجه نحو جدار الحجرة، فصرخت بكل قوتي، محاولًا انتزع نفسي من ذهول، أنادي الضباط والجنود من الخارج..

ولم يوقفه هذا..

سمعت وقع أقدامهم تعدو نحو المكان، في نفس الوقت الذي وصل فيه إلى الجدار، ثم استدار إلى، والتمعت عيناه أكثر..

وأطلق ضحكة..

ضحكة قصيرة ساخرة..

ثم عبر الحائط..

نعم.. عبر الحائط، وكأن أحدهما لا وجود له..

هو...

أو الحائط..

وعندما اقتحم الضباط والجنود مكتبى، كنت جامدا على مقعدي، والذهول والرعب مرتسمان على وجهي بأقصى وأقسى ملامحهما..

وجن جنون الجميع..

وتم تفتيش مديرية الأمن كلها شبرا شبر..

وكل المنطقة المحيطة بها..

ولم يكن هناك تفسير واحد لاختفاء السفاح..

وبالنسبة لي، لم أذكر ما حدث في تقريري الرسمي، حتى لا أتهم بالخرف والجنون..

ولكنني، ومنذ ذلك الحين أتساءل: متى سيعود لارتكاب جرائمه..

ولم أعد أذوق طعم النوم، مع سؤال آخر، كاد يقودني إلى الجنون..

ترى هل سيحين دوري على قائمته يومًا..

هل؟!.

أراكنوفوبيا..

"(ليلى)... (ليلى).. أسرعي.."

انتفض جسد (ليلى)، مع هذا النداء العصبي المذعور، من زوجها (خالد)، وأسرعت تعدو إليه في حجرة مكتبه، وما أن دخلتها، حتى وجدته منكمشًا في مقعده، وعيناه متسعان عن آخرهما في رعب، وهو يشير إلى ركن قريب، صارخا:

- اقتليه.. اقتلي هذا الوحش.

استدارت بسرعة إلى حيث يشير، وزفرت في عصبية، وهي تقول في غضب:

- (خالد).. إنه مجرد عنكبوت صغير.

صاح، وهو يرتعد في شدة:

- اقتليه.. اقتليه.

خلعت فردة شبشبها المنزلي، وهوت بنعله على العنكبوت الصغير، فسحقته سحقا، وهي تقول في عصبية:

- لا يمكن أن يستمر هذا يا (خالد).. لابد وأن تراجع طبيبًا نفسيًا جيدًا.

كان وجهه شاحبا، والعرق يغمره، وهو يقول:

- ما رأيك أنت؟!

اتسعت عيناه، وهو يحدق في العنكبوت المسحوق، ثم أشاح بوجهه في سرعة، هاتفًا:

- تخلصي منه.. تخلصي منه.

هزت رأسها بنفاد صبر، واتجهت نحو المطبخ؛ لتتخلص من العنكبوت الصريع في صندوق القمامة، ثم عادت إليه، وجلست أمامه، وهي تقول، محاولة ترقيق صوتها ولهجتها:

- (خالد).. حياتنا لا يمكن أن تستمر على هذا النحو.

انعقد حاجباه، وقال متحاشيًا النظر إليها:

- ماذا تريدين يا (ليلى)؟!

التقطت نفسًا عميقًا، في محاولة للحفاظ على رقة صوتها ولهجتها، وهي تجيب:

- مشكلة الخوف من العناكب هذه، لا يمكن أن تستمر.. كل المنازل بها عناكب.

غمغم في عصبية:

- ليس المنازل النظيفة.

انفلت غضبها، وهي تقول:

- كل المنازل.

ثم تراجعت، مستعيدة سيطرتها على أعصابها، وهي تقول:

- لقد قرأت الكثير عن حالتك هذه.. اسمها العلمي (أراكنوفوبيا)، وهي تعود إلى مشكلة في الطفولة، أو..

قاطعها في حدة:

- لا شأن لي بهذا.

قالت في إصرار

- وعلاجها ممكن، طبيًا ونفسيًا.

ازدادت حدته، وهو يقول:

- لا شأن لي بهذا.

نهضت واقفة، وهي تقول في صرامة:

- (خالد)... لابد وأن تذهب إلى طبيب نفساني.

هتف:

- لن أذهب.

صرخت، وقد انفلتت أعصابها:

- لابد يا خالد... لابد.

صاح بها:

- ولماذا لابد؟!

تراجعت، وكأنما فاجأها السؤال، ثم عقدت ساعديها أمام صدرها، قائلة:

- لأن هذا ليس ما كنت أحلم به، عندما فكرت في الزواج.

وبدأت الدموع تنساب من عينيها، وهي تكمل:

- كنت أحلم بالزواج من فارس مغوار، كما تحلم كل بنت... فارس أشعر معه بالأمان والحماية.

أشاح بوجهه أكثر، بعيدًا عنها، وهو يقول في حدة:

- أخطأت بزواجك منى إذن.

صمتت لحظات، ثم أومأت برأسها، مغمغة:

- هذا صحيح.

هتف في عصبية:

- ولا تحاولي طلب الطلاق... سأستعين بأكبر المحامين؛ لضمان عدم حصولك عليه.

غمغمت في مقت:

- تستطيع أن تفعل بالطبع؛ لأنك تملك الثروة والنفوذ.. أما أنا...

لم تكمل العبارة، مكتفية بدمعة ساخنة، انحدرت على خدها، وهو يقول في صرامة عصبية:

- واهتمي أكثر بالنظافة.. لا أريد رؤية أي عنكبوت هنا.. هل تفهمين.

غادرت حجرة مكتبه، وهي تغمغم بلهجة باكية:

- أعلم..

ولقد نفذت أوامره بمنتهى الدقة.. _

وعلى الرغم من رفضه التام لاستئجار خادمة نظافة، لم ير (خالد) عنكبوتا واحدًا في المنزل، خلال شهر كامل..

وفي نهاية هذا الشهر، حان موعد عيد زواجهما..

ولقد بدت (ليلى) شديدة الاهتمام بهذه المناسبة..

أعدت عشاءًا جيدًا، وزينت حجرة نومهما، وارتدت ثوبًا شديد الأناقة، يميل إلى الإغراء، وحرصت على أن تعد له مشروبه المفضل، الذي أنت له به، في كأس خاص، طبعت عليه تاريخ زواجهما، ووضعت الشموع على المائدة، مع باقة من الزهور..

وبكل الدهشة، استقبل (خالد) هذا..

وعلى الرغم من دهشته، أسعده الموقف كله كثيرًا..

وعلى مائدة العشاء، ومع ضوء الشموع، سألها:

- ترى ما سر كل هذا؟!

أجابته في سعادة واضحة

- اليوم مناسبة خاصة جدًا.

ابتسم ابتسامة واسعة، وقال في حماس:

- صدقيني... لم أنس ذكرى عيد زواجنا أبدًا.

ابتسمت بدورها ابتسامة هادئة، وهي تقول:

- إنك لم تذكره قط، طوال سنوات زواجنا الخمس.

قهقه ضاحكًا، قبل أن يجيب:

- أنت تعرفين مشكلاتي، و..

قاطعته في رقة:

- دعنا لا نتحدث عن هذا الليلة.

ثم رفعت يدها، مكملة في سعادة واحدة:

- فالليلة أسعد ليلة في حياتي.

تضاعفت سعادته، حتى أنه بدا شديد المرح، وهما يتناولان طعام العشاء، وأبدى استحسانًا كبيرًا لما فعلته..

وبكل استمتاع، شرب مشروبه المفضل..

وفي حوالي الحادية عشرة مساءًا، رأى (ليلى) تتطلع إليه في اهتمام، فابتسم في تراخ، مغمغمًا

- لماذا تتطلعين إلى هكذا؟!

غمغمت في اهتمام:

- تبدو لي نصف نائم.

أراد أن يشير لها بيده..

ولكنه لم يستطيع...

حاول بجدية..

ولكنه لم يفلح..

كل أطرافه بدت خدرة..

ثقيلة..

متهالكة..

حتى لسانه بدا متثاقلًا، وهو يغمغم:

- ماذا أصابني؟!

أجابته في هدوء:

- إنه مشروبك المفضل.

غمغم بكل صعوبة:

- ماذا وضعت به؟!

هزت كتفيها، وحافظت على ابتسامتها، وهي تقول:

- لا يمكنك أن تتصور كم المعلومات، التي يمكنك الحصول عليها، عبر شبكة الإنترنت...

لم يفهم ماذا تعنى..

ولكن لم يملك التعبير عن هذا..

أما هي، فتابعت بنفس الابتسامة:

- انه عقار مدهش، يجعلك تفقد السيطرة على كل حركاتك وعضلاتك الإرادية، دون أن تفقد شعورك أو إحساسك بما حولك.

ثم نهضت من مكانها، واتجهت نحوه، وجلست إلى جواره، مكملة:

- هذا يعني أنك الآن تحتفظ بكل مشاعرك وأحاسيسك، ولكنك مصاب بشلل كامل مؤقت يا زوجي العزيز.

بدأ يشعر بالقلق، وخاصة عندما مالت نحوه، تسأله بابتسامتها، التي بدت له مقيتة مستفزة:

- ألم تسأل نفسك: لماذا لم تر عنكبوتًا واحدًا في المنزل، طوال شهر كامل، على الرغم من أننا نمتلك حديقة، تجلب في المعتاد الكثير من العناكب، من مختلف الأنواع؟!

ومالت نحوه أكثر مضيفة:

- لم يكن هذا لأني كنت أتخلص منها في الواقع، بل على العكس.

أطلقت ضحكة قصيرة، قبل أن تكمل:

- لقد كنت اجمعها.

تركته لحظات، اختفت خلالها في المطبخ، ثم عادت وهي تحمل وعاءً زجاجيًا كبيرًا مغلقًا..

واتسعت عيناه بكل الرعب..

فالوعاء كان يمتلئ بالعناكب، من مختلف الأنواع والأحجام..

أمسكت الوعاء أمام وجهه، وهي تقول في مرح:

- ما رأيك بمجموعتي؟!

حاول أن يصرخ..

أن يستغيث..

أن يفعل أي شيء...

ولكن ذلك العقار كان قويًا بالفعل..

وفي هدوء، لا يتناسب حتى مع شخصيتها، قالت (ليلى):

- شبكة الإنترنت تقول: إن مفعول هذا العقار يستمر لمدة ساعتين فحسب، وبعدها يتلاشى مع الأنفاس ولا يترك حتى أثرًا في الدم.

هزت وعاء العناكب في هدوء، قبل أن تتابع:

- وتقول أيضًا: إن المصابين بعقدة (الأراكنوفوبيا)، يمكن أن يصابوا بأزمات قلبية قاتلة، لو حاصرتهم العناكب، في مكان ما.

وأطلقت ضحكة أخرى، قبل أن تكمل:

- فما بالك لو تواصلت معهم مباشرة.

قالتها، وفتحت الوعاء، ثم أفرغت العناكب..

على جسد ووجه (خالد) مباشرة..

وفي هدوء شديد، اتخذت مجلسها، تتابع نظرات الرعب الشديد على وجهه، والتي استغرقت ثلاث عشرة دقيقة، قبل أن تتجمد نظرته، ويسكن جسده تمامًا..

وهنا، وبنفس الهدوء، نهضت تحضر مكنستها الكهربائية؛ لتنظيف المكان من العناكب، ثم التقطت بعدها سماعة الهاتف، وطلبت رقم طبيب (خالد) الخاص، ولم تكد تسمع صوته، حتى هتفت، في ذعر مفتعل:

- دكتور (طلعت).. تعال بسرعة.. أرجوك.. (خالد) سقط مني، أثناء احتفالنا بعيد زواجنا.. لا.. إنه لا يتحرك، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما.. أسرع يا دكتور (طلعت).. أسرع بالله عليك.

أنهت المحادثة، واستعادت هدوءها، وهي تغمغم:

- لم يكن هذا ما حلمت به أو تمنيته، عندما كنت بنتًا تحلم بفارسها المنتظر.

ثم التقطت زجاجة مشروب غازي، ورفعتها في الهواء، قائلة:

- عيد زواج سعيد يا (خالد).

واسترخت أعصابها..

أخيرًا.

البعثة..

الثالث من يناير:

وصلنا اليوم إلى منطقة البحث، في الصحراء الشرقية.. نحن فريق من خمسة علماء... ثلاثة رجال وامرأتين، وكلنا متخصصون في الجيولوجيا، وعلم طبقات الأرض.. ومعنا سبعة من الفنيين، ومندوب عن القوات الجوية المصرية..

والسبب في قدومنا، إلى هذه البقعة بالذات، هو ما سجله التصوير الجوي، من تغيرات عجيبة فيها..

بعض الصور أشارت إلى تحركات غير طبيعية لكثبان الرمال..

وبعضها رصد ما يشبه الدوامات البحرية، وسط بحر الرمال، الذي يحيط بناء على مرمى البصر، من كل الجهات والتصوير بالأشعة أشار إلى وجود فجوة، أو كهف كبير تحت الرمال..

وفي هذه البقعة بالتحديد..

ولهذا تم تكليفنا بالقيام بهذه البعثة..

والهدف هو إيجاد تفسير لكل هذا..

ومنذ أقل من نصف الساعة، انتهى نصب الخيام، وبدأ الفريق عمله بالفعل، بإعداد أجهزة الفحص، وأجهزة سبر الأغوار، وجهاز يشبه سونار الغواصات، ويمكنه كشف أية فجوات أو كهوف تحت أرضية، وتم أخذ عينات من الرمال، ويتم الآن فحصها بكل الأساليب العلمية المعروفة، وسأقوم بتسجيل النتائج أولًا بأول، باعتباري رئيس البعثة..

الرابع من يناير:

النتائج التي حصلنا عليها تربكنا بالفعل..

ففور وصولنا، لم يشر جهاز سبر الأعماق عن وجود أية تجاويف تحت أرضية في الموقع..

ولكن في المساء، سجل الجهاز وجود عدة تجاويف محدودة..

المثير في الأمر أن موقعها لم يكن ثابتا..

لقد كانت مواضعها تختلف كل ساعة..

وهذا مستحيل الحدوث علميًا.

الأعجب أنه، وفي تمام منتصف الليل، اختفت تلك التجاويف تماما!!..

ولقد عقدنا ما يشبه ندوة علمية مصغرة، في خيمة مندوب القوات الجوية؛ للعثور على تفسير..

وبعد حوالي الساعة، من الأحاديث والمجادلات العلمية، انتهى بنا الأمر إلى نتيجة أرضتنا جميعًا

أن المشكلة تكمن في جهاز سير الأغوار، وليس في الأغوار نفسها..

وعلى الرغم من أن هذا يستلزم فحص الجهاز أولا، إلا أن هذه النتيجة أرضتنا جميعًا، وأوينا إلى فراشنا هادئين..

واليوم، وعندما كنا نتناول الإفطار، شكت الدكتورة (سعاد) من ضوضاء مكتومة، سلبت من عينيها النوم معظم الليل..

ولكن أحدنا لم يسمع تلك الضوضاء.

أو حتى يشعر بها..

وبسرعة، فسرنا الأمر بأنه كابوس ليلى، ثم عدنا لمزاولة عملنا المعتاد..

والساعة الآن الثانية عشرة والربع، من منتصف النهار، وجهاز سبر الأغوار، لم يسجل أية نتائج عجيبة

ولكن الفحوص المعملية سجلت هذا..

فعينات الرمال كانت طبيعية، إلا من أمر واحد: النشاط الحيوي فيها كان أكثر من المعتاد بكثير..

جدا..

وفحص أية رمال، عادة ما يسفر عن وجود نشاط حيوي، على نحو أو آخر بقايا حشرية.

مخلفات طيور..

أو حتى بكتيريا نشطة..

ولكن النشاط الذي سجلته التجارب المعملية، والتي تمت إعادتها خمس مرات، أشارت إلى نشاط حيوي فائق

نشاط لا يمكن تسجيله، إلا مع عينة من كائن حي!!..

ولم يفهم أحدنا هذا أبدا..

الأمر بالفعل يخالف كل القواعد العلمية..

وعلى نحو مستفز..

ولكننا سنعيد دراستنا، وسنبحث عن تفسير..

فدومًا هناك تفسير ما..

دوما..

الساعة الآن العاشرة مساء، وكنت قد توقفت عن التسجيل، لأعيد فحص عينات الرمال بنفسي..

وعودتي إلى التسجيل ليست لأنني وجدت تفسيرا.

ولكن لأن الظاهرة عادت للظهور..

تلك الفجوات المتحركة!!..

في هذه المرة فحص الفني المختص جهاز سبر الأغوار مرة..

وثانية..

وثالثة..

ولكن الجهاز لم تكن به أية عيوب، وكان يعمل بكفاءة تامة..

هناك بالفعل نوع من الفجوات تحت الأرضية، التي تتحرك أسفل الرمال، بعد مغيب الشمس بساعات..

وفي حياتي كلها، لم أر شيئا كهذا..

أو حتى أقرأ عنه..

ولكنه يحدث..

ومادام يحدث، فهناك حتما تفسير ما..

وأقول حتما..

نحن الآن بعد منتصف الليل بخمس دقائق، وكان من الضروري أن أسجل هذا، قبل إنهاء التقرير اليومي..

الفجوات تحت الأرضية المتحركة، سلكت اليوم نفس سلوك الأمس..

اختفت دفعة واحدة..

وعند منتصف الليل..

بالضبط..

ترى هل نواجه ظاهرة رملية جديدة، لم يتم تسجيلها أو رصدها من قبل..

لو أن الأمر كذلك، فمن الضروري أن نبذل المزيد من الجهد، حتى نكشف أسباب هذه الظاهرة..

ومن يدري، ربما نحصل بهذا على جائزة (نوبل) في العلوم..

أقول ربما...

الخامس من يناير:

اونا

اعذروني لو كانت كلماتي اليوم مضطربة..

فما حدث أمر رهيب.

لقد اختفت الدكتورة (سعاد)

حاولت زميلتها الدكتورة (فاطمة) إيقاظها في الصباح، ولكنها وجدت خيمتها خالية، وهناك مساحة كبيرة في منتصفها، من رمال ناعمة، من الواضح أنها قد ابتلعتها أثناء نومها..

وكانت صدمة لنا جميعا..

صدمة إنسانية..

وعلمية..

فمن المستحيل، ونحن خمسة من علماء الجيولوجيا، أن ينصب أحدنا خيمته، فوق بحر صغير من الرمال الناعمة!!..

مستحيل تماما!!..

ولكن هذا ما بررنا به الأمر لطاقم الفنيين، ومندوب القوات الجوية..

وعلى الرغم من أننا قد أقمنا مراسم الرثاء للدكتورة (سعاد)، إلا أنه هناك أمور أقلقتنا كثيرا..

فعدد من أفراد الطاقم الفني، وحتى زميلنا الدكتور (محمد)، كانوا يشكون من تلك الضوضاء المكتومة العجيبة، التي لم يسمعها أو يشعر بها سواهم، والتي منعتهم تماما من النوم..

ما الذي نواجهه بالضبط؟!..

ظاهرة علمية صحراوية جديدة، أم...؟ ...

سأترك هذا للزمن.. لعله يجيب..

أو لا يجيب..

لست أدرى!!..

السادس من يناير:

مندوب القوات الجوية قرر اليوم إنهاء عمل البعثة رسميا، بعد أن استيقظنا لنفاجأ باختفاء أربعة رجال دفعة واحدة..

ثلاثة من الفنيين..

والدكتور (محمد)..

أربعتهم اختفوا دون أن يتركوا خلفهم أثرا، باستثناء بركة الرمال المتحركة، في منتصف خيمة كل منهم

هنا لم يعد الأمر مجرد ظاهرة..

إنه يتجاوز هذا.

بكثير..

الأربعة الذين اختفوا، هم من سمعوا تلك الضوضاء المكتومة ليلة أمس..

ووحدهم كانت في موقع خيامهم رمال متحركة..

وحدهم دون سواهم..

ولقد فحصت رمال كل خيمة بنفسي

واختفاء الأربعة لم يكن الظاهرة الوحيدة..

لقد تعطلت اليوم أيضا كل أجهزة البعثة..

كلها في آن واحد..

وبلا مقدمات..

وعندما فحصها الفنيون، وجدوها تمتلئ بالرمال..

كلها..

حتى أجهزة الاتصال، مع مندوب القوات الجوية، وجدنا داخلها كمّ من الرمال، يكفي لإفساد كل التوصيلات الرقمية بها!!..

أصابنا هذا جميعا بحالة من الرعب الصامت، الذي بدا واضحا في شحوب الوجوه، وزوغان الأعين..

وحده مندوب القوات الجوية ظل متماسكا، ولكنه ما أن اختلى بي، حتى أخبرني أن سبب وجوده في البعثة، هو اختفاء إحدى طائرات القوات الجوية في هذه البقعة، ودون أن تترك أدنى أثر..

ولأن أجهزة الاتصال لدينا تلفت، فقد رأى أنه يستعين بوسيلة تقليدية قديمة..

مسدس الإشارة..

كان يعلم أن فرصة رؤية ضوء الإشارة في النهار ضعيفة، إلا أنه لم يكن يملك سوى تلك الوسيلة..

وحتما لم يكن يريد البقاء، حتى يغلفنا ظلام الليل..

ولكن المشكلة الكبرى هي أنه لم يعثر على مسدس الإشارة..

بل ولا حتى على حقيبة أدواته كلها..

لقد اختفت من خيمته تماما..

وكالمعتاد... بلا أثر..

وبكل توتره، طلب منا أن نترك كل الأجهزة خلفنا، ونبتعد عن هذه البقعة الملعونة على الفور..

ولكن الرمال كانت في كل مكان..

حتى محركات السيارات..

كل السيارات..

وكان هذا يعني أننا سجناء هنا، مع ظاهرة تثير رعبنا، ولا ندرك عنها شيئا..

وعلى الرغم من أن هذا يخالف كل القواعد، فقد طلب منا مندوب القوات الجوية أن نبتعد عن تلك المنطقة، مهما كانت النتائج..

وهنا كشفنا المصيبة الكبرى

لقد صرنا مسجونين داخل دائرة كبيرة من الرمال المتحركة، يبلغ عرضها عشرة أمتار

دائرة علمنا بوجودها، عندما ابتلعت اثنين من الفنيين، والدكتور (عادل)، مع محاولتهم الابتعاد عن المنطقة..

لا مفر إذن..

هناك قوة ما، تصر على أن نبقى..

وسنبقى..

على الرغم من أنوفنا..

الساعة الآن السادسة والنصف، والشمس غابت بالكاد، ولكنني أرتجف، من قمة رأسي، وحتى أخمص قدميّ..

إنني أتعجب حتى، كيف أمكنني كتابة هذه الكلمات، بعد كل ما شاهدته بأم عيني!!

فمنذ قليل، بدت تلك الضوضاء قوية مسموعة، على نحو أصابنا جميعا بالرعب، خاصة وأنها تنبعث من تحت أقدامنا من أسفل الرمال..

ثم كاد قلبي يتوقف، مع ذلك المشهد الرهيب..

شيء أشبه بثعبان هائل من الرمال، ارتفع فجأة، وأحاط بمندوب القوات الجوية، ثم سحبه معه إلى أسفل، فأختفى تماما، تاركا بركة صغيرة من الرمال المتحركة في موضعه..

ثم تلاه أحد الفنيين..

ثم الدكتورة (فاطمة)..

وتوالى السقوط..

والاختفاء..

شيء ما يشن الحرب علينا..

شيء لا يمكن أن أصفه إلا بأنه رمال حية..

رمال ابتلعت الجميع، فلم يتبق سواى..

وليت أدرى حتى إذا ما كانت تقاريري هذا ستصل إلى أحد أم لا، فالضوضاء المكتومة تتصاعد من أسفلى تماما..

وها هي ذي الرمال من تحتي تدور، وتدور، وتد....

«ليس هناك أي أثر للبعثة.. المنطقة تبدو خالية تماما... لا بشر، ولا أجهزة، ولا حتى سيارات... مجرد رمال»

أعاد وزير البحث العلمي وقائد القوات الجوية سماع تقرير طائرات البحث عدة مرات، قبل أن يقول قائد القوات الجوية في توتر:

- أين ذهبوا؟!.. لا أحد يختفي هكذا، دون أن يترك ولو أثر ضئيل خلفه..

صمت الوزير لحظات مفكرا، قبل أن يقول:

- ليس هناك سوى سبيل واحد للمعرفة..

سأله قائد القوات الجوية في اهتمام:

- وما هو؟!..

سحب الوزير قلما، وهو يجيب:

- نرسل بعثة أخرى.. سأصدر قرارا بهذا فورا.

ووقَّع القرار.

الشيخ جاد..

كان يوما مرهقا بحق..

فمنذ الصباح الباكر، لم يسر أي شيء على ما يرام..

السيارة تعطلت في الصباح، فوصل إلى عمله متأخرًا..

والعميل الجديد، الذي اتصل به أمس، وتحدث معه عن صفقة بعشرة ملايين، أخبره اليوم أنه متردد، وأن شركة أخرى عرضت عليه عرضًا أفضل..

وعندما غادر عمله، وجد إطارين من إطارات سيارته فارغين، واستغرق هذا منه ما يقرب من الساعة، قبل أن ينطلق عائدًا إلى منزله..

إنه واحد من تلك الأيام، التي لا يسير فيها أي شيء على ما يرام..

مطلقًا..

وعندما بلغ منزله، لم يكن يحتمل أن يتحدث إليه أحد، وكان يرغب في الصعود فقط إلى شقته، وتناول قرص منوم قوى، والغرق في سبات عميق، لعله يهدئ من أعصابه، ويزيل توتره..

لهذا فقد أحنقه مرأى ذلك الشيخ الوقور، الذي وقف إلى جوار باب البناية، وراح يتطلع إليه مباشرة بابتسامة كبيرة..

حاول أن يتجاهل ملامحه الهادئة، ولحيته الشيباء الطويلة، إلا أن نظرات الشيخ مالت تتابعه بنفس الابتسامة، وكأنما أتى من أجله بالتحديد..

"ماذا تريد يا هذا؟...."

صرخ في وجه الشيخ في حدة، شعر بالندم بعد أن أطلق صرخة بلحظة واحدة، خاصة وأن الشيخ لم يبد انزعاجا من حدته، وإنما سأله بكل الطيبة والهدوء:

- ماذا يزعجك يا ولدي؟!

استعاد حدته، وهو يقول:

- لا شأن لك بهذا.

مرة أخرى لم يبد انزعاجًا، وإنما أومأ برأسه في هدوء وطيبة ووقار، قائلا:

- لا بأس يا (مجدي) يا ولدي... كل متاعبك ستزول غدا بإذن الله..

قالها الشيخ، واستدار لينصرف، ولكن (مجدي) وثب يمسك بذراعه، وهو يهتف في حدة:

- كيف تعرف اسمى؟!

تطلع الشيخ إلى عينيه مباشرة، ولم يفقد ابتسامته الطيبة الوقور، وهو يزيح يده الممسكة بذراعه، قائلا:

- كل شيء سينصلح غدا.

مع النظر إلى عيني الشيخ مباشرة، أفلت (مجدي) ذراعه، وشعر بخدر عجيب يسري في جسده، والشيخ يبتعد..

ويبتعد..

"اسمه الشيخ (جاد)..."..

قالها بواب البناية، في خشوع جمل (مجدي) يلتفت إليه في حدة، ويسأله:

- أتعرفه؟!

أومأ البواب برأسه إيجابًا، وقال:

- إنه شيخ طيب، يمر من هنا كل حين وآخر.

ثم مال نحو (مجدي)، وخفض صوته، وكأنه سيدلي بسر خطير، متابعًا:

- وله كرامات.

غمغم (مجدي) في دهشة منفعلة:

- كرامات؟!

أومأ البواب برأسه في حماس، قائلا:

- لقد توقف ذات مرة، وأخبرني أن الفرج سيأتيني في اليوم التالي..

وفي اليوم التالي بالفعل، كان هناك رجل يمر من أمام البناية، عندما شعر بدوار، وكاد يسقط أرضًا، فالتقطته، وأحضرت له كوبا من الماء، وطلب منى أن أعطية قرصًا من دواء يضعه في جيبه، وعندما استعاد وعيه، وقال: إنني أنقذت حياته.

وعاد يميل نحو (مجدي)، مضيفًا في انبهار:

- وأعطاني ألف جنيه.. هل تصدق يا (مجدي) بك... ألف جنيه دفعة واحدة.

قالها، وتراجع يهتف:

- كراماتك يا شيخ (جاد).

بدا (مجدي) مبهورًا، وهو يسأله:

- وكيف عرف اسمى؟!... هل أخبرته به؟!

لوح البواب بذراعه، مجيبًا

- الشيخ (جاد) لا يحتاج إلى من يخبره.. إنه يعلم كل شيء.

بدا (مجدي) مبهورا بما سمعه، حتى أن شعوره بالانبهار غلب توتره، ولكنه منعه أيضًا من النوم الهادئ..

وفي اليوم التالي، تصاعد شعور الانبهار أكثر وأكثر...

فعميل الأمس عاود الاتصال، وأخبره أنه قد حسم أمره، وسيعقد الصفقة مع شركته، مضاعفًا إياها إلى عشرين مليون جنيه..

وكاد (مجدي) يطير من الفرحة.

فهذا الرقم يعني أن عمولته ستبلغ عدة مئات من الألوف..

وعلى الرغم من وقاره المعتاد في عمله، وجد نفسه يهتف:

- كراماتك يا شيخ (جاد).

والاهم أنه لم يكد يلمح الشيخ (جاد) أمام بنايته تلك الليلة، حتى أسرع إليه، يسأله:

- شيخ (جاد).. هل تقبل دعوتي؟!

بدت الدهشة على وجه الشيخ، وهو يسأله:

- دعوتك لأي شيء يا ولدى؟!

أجابه (مجدي) بكل حماس:

- على كوب من الشاي.. و.. وقليل من الحديث.

ابتسم الشيخ (جاد)، وهو يعتذر في رقة:

- ربما فيما بعد يا ولدي... في يوم آخر.

أمسك (مجدي) ذراعه في رفق هذه المرة، وهو يقول، في لهجة أقرب إلى التوسل:

- أرجوك... لن أضيع الكثير من وقتك.

ظهر التردد على وجه الشيخ قليلا، ثم قال:

- لا بأس.. على ألا نطيل... أريد اللحاق بصلاة المغرب إن شاء الله..

كاد (مجدي) يطير من السعادة، عندما صعد معه الشيخ إلى شقته، وما أن أجلسه في صالون الضيوف، حتى هتف به:

- أنت رجل بركة يا شيخ (جاد).. الأمور كلها تحسنت اليوم، كما أخبرتني تمامًا بالأمس.

تطلع إليه الشيخ (جاد) في اهتمام وقور، قبل أن يسأله في هدوء:

- ماذا يزعجك يا ولدي؟!

بدت الدهشة على ملامح (مجدي)، وهو يقول:

- لا شيء يزعجني اليوم يا شيخ (جاد)... لماذا تكرر هذا، كلما رأيتني؟!

تفرس الشيخ (جاد) في وجهه لحظات، قبل أن يقول:

- الذي يزعجك لم يحدث اليوم يا ولدى... إنه كامن هناك.

قالها، وأشار إلى رأس (مجدي)، الذي تراجع في دهشة شبه مذعورة، وهو يغمغم بصوت مرتجف:

- ماذا تعني يا شيخ (جاد)؟!

هز الشيخ رأسه في وقار، قائلًا

هناك شيء ما يعذب روحك... اثم ارتكبته، ولم تبح به لأحد، ولكنه يعذبك.

ارتجفت ملامح(مجدي)، على نحو يؤكد مقولة الشيخ (جاد)، الذي سأله في رفق وطيبة:

- أفصح عما لديك يا ولدى، فيزول شعورك بالعذاب.

أشاح (مجدي) بوجهه، مغمغمًا في توتر:

- لا يوجد ما أفصح عنه يا شيخ جاد.

صمت الشيخ (جاد) لحظات، ثم قال في هدوء رصين:

- لو أخبرتك أنا بما أقرأه من عقلك، لن يزول عذابك أبدأ.. يا ولدى.

لاذ (مجدي) بالصمت، وإن شفت ارتعاشة جسده عما يعانيه، فواصل الشيخ بنفس الهدوء والرصانة:

- إنه طريق مظلم طويل، وطقس مطير، و..

أكمل (مجدي)، في لهجة أقرب إلى البكاء:

- وطفلة صغيرة تعبر الطريق.. مساحات الزجاج الأمامي لم تكن تعمل على نحو جيد، فلم أرها..

ثم راحت الدموع تنهمر من عينيه، وهو يتابع في مرارة وألم:

- أقسم أنني لم أرها.

غمهم الشيخ (جاد):

- وصدمتها.

بكى (مجدي) بصوت مسموع، وهو يقول:

- عندما رأيتها، لم يكن هناك مفر من الاصطدام.

غمغم الشيخ (جاد):

- ولكنك لم تحاول التوقف لإسعافها.

بكى (مجدي) في حرقة، مجيبا:

- لم أحاول بالفعل... لقد أصابني الذعر، فانطلقت أعدو كأي جبان رعديد..

تراجع الشيخ (جاد)، قائلًا:

- كان يمكنك أن تبلغ عن الحادث، وربما تم إسعافها لو فعلت.

هتف (مجدي) من وسط دموعه:

- ولكنني لم أفعل.

ثم راح يبكي في حرقة جعلت الشيخ (جاد) يربت عليه، قائلًا:

- الآن، وقد أفرغت ما تخفيه في أعماقك، سيزول الألم والعذاب.

التفت إليه (مجدي) يسأله:

- هل تعتقد هذا يا شيخ (جاد)؟!

أخرج الشيخ (جاد) من جلبابه النظيف كيسًا من أعشاب برية، ناوله إياه، قائلا:

- صب بعض الماء المغلي على هذا، واتركه لدقيقة، ثم اشربه، سيزول الألم والعذاب نهائيا.. هيا... افعل هذا الآن.

أسرع (مجدي) ينفذ ما طلبه الشيخ (جاد)، وعاد إليه وهو يرتشف ذلك المشروب في شغف، والشيخ (جاد) يقول في هدوء:

- هيا... تناوله كله، وسيزول كل الألم والعذاب.

وبالفعل، وبعد دقائق من تناول منقوع الأعشاب هذا، شعر (مجدي) باسترخاء تام، وبخدر يسرى في جسده، وتثاقل جفناه، وبدا له أن الشيخ (جاد) يبتسم في ظفر، وهو يقول:

- أطرافك لم تعد تستجب.. أليس كذلك؟!

حدق فيه (مجدي) في صعوبة، وفوجئ به ينهض، وينتزع تلك اللحية البيضاء، لتظهر من خلفها ابتسامة شامتة ظافرة...

وبدا له الوجه عندئذ مألوف للغاية..

"لا تحاول تذكر من أنا... انت تراني كثيرًا، ولكنك لا تعرف حتى اسمى..."

قالها الشيخ (جاد) في هدوء ساخر، قبل أن يضيف:

- الواقع أنني مجرد كومبارس في السينما... موهوب للغاية في التمثيل، ولكنني مازلت مجرد كومبارس..

حاول (مجدي) ان يقول شيئًا، أو أن يحرك طرفًا، ولكنه عجز عن هذا تماما، والرجل يتابع:

- الواقع أنني قمت هذه المرة بدور، أستحق عنه جائزة (الأوسكار)، لو تم عرضه على شاشة السينما... أنا العميل الذي اتصل بك لعرض العشرة ملايين، والذي قام بإلغائه في اليوم التالي، ثم رفعه إلى عشرين مليونًا بعدها بيوم واحد.

بدأت الصورة تتكون في ذهن (مجدي)، والرجل يكمل في زهو:

- وأنا الشخص الذي تظاهر بالسقوط، ومنح البواب ألف جنيه دفعة واحدة... أنا لعبت كل الأدوار، حتى أقنعك بالشيخ (جاد) وكراماته، وحتى أدفعك إلى دعوتي إلى منزلك.... وأجدت أداء دوري، حتى أنك صنعت السم بنفسك لنفسك، وتجرعته بإرادتك أمام عيني.

كان (مجدي) يفقد إحساسه بجسده وعقله تدريجيًا، وإن أطلت من عينيه نظرة مذعورة متسائلة، جعلت الرجل يعتدل، قائلا في مقت:

- ستسألني بالطبع لماذا كل هذا؟!.. باختصار لأنني والد تلك الابنة الوحيدة، التي صدمتها بسيارتك، وتركتها تلفظ أنفاسها الأخيرة، تحت مياه المطر؛ لتفر من مسرح جريمتك في حقارة.

والتقط نفسا عميقا، مضيفا:

- لن تتخيل مدى الجهد الذي بذلته، حتى توصلت إليك.. ولكن دون دليل يكفي لاتهامك رسميًا.

ثم مال نحوه، مكملًا بكل مقت وكراهية الدنيا:

- وكان من المستحيل أن أتركك تفلت من العقاب، مهما كان الثمن.

كانت عينا (مجدي) تنظران إليه مباشرة، عندما نطق كلماته الأخيرة هذه، إلى أنها كانت تفتقر إلى أهم ما يميز عيني البشر..

البريق..

بريق الحياة.

السجين..

"ثلاثة أمتار ويكتمل النفق.."..

هكذا قال (صالح) لنفسه، وهو يواصل في صبر، حفر ذلك النفق، الذي يقوده من زنزانته، إلى خارج جدران السجن مباشرة..

خمس سنوات وهو يواصل الحفر، مستخدمًا ملعقة كبيرة، قام بشحذها خفية...

خمس سنوات وهو يحفر..

ويحفر..

ويحفر..

وبمنتهى الصبر والكد والعرق..

كان مجموع الأحكام، التي حصل عليها، من جراء مجموعة جرائم القتل والاعتداء والاغتصاب والسرقة، التي ارتكبها دون أن يطرف له جفن، يتجاوز المائتي عام..

فماذا تهم خمس سنوات إذن؟!

لم تكن أول مرة يسجن فيها، وكان معتادًا زنزانة الحبس الانفرادي، التي تعتمد أن يكون مشاغبًا طوال الوقت؛ حتى يتم نقله إليها..

وبمنتهى البراعة، أخفى موضوع النفق، خلف حجر كبير في الجدار..

انتابته حالة من النشوة، وهو يعيد حساباته، ويتأكد من قرب وصوله إلى الهدف، خارج أسوار السجن..

واعترف لنفسه بأنه عبقري..

كل شيء قام بالتخطيط له بمنتهى الدقة، منذ دخل السجن..

كل شيء..

خريطة السجن الهندسية..

نوع حجارة الزنزانة..

اتجاه وزمن الحفر..

كل شيء..

حتى خطة ابتعاده عن السجن، وضعها مع زوجته، في آخر زيارة لها..

لاريب في أنها الآن تنتظره داخل سيارة بدون أرقام، على مسافة مائة متر من السجن، وكل ما عليه، عندما يخرج من النفق، خارج أسوار السجن، أن يشعل عود

ثقاب..

ومن بعيد، سترى زوجته نيران عود الثقاب..

وبسرعة ستأتي..

وبسرعة أكبر ستنطلق، بعد أن تلتقطه..

ولأنه مخطط بارع وعبقري، ستكون جوازات السفر معها، بالإضافة إلى تذكرتين لأبعد دولة، يمكن أن تقلع طائرتها أليها، بعد ساعتين على الأكثر من هروبه..

وفي السيارة سيستبدل ثيابه أنيقة، تجعله أشبه برجال الأعمال، ويسير كل شيء على ما يرام..

توقف لحظات لاسترداد أنفاسه، وعدل وضع ذلك المنديل، الذي يخفى به أنفه وفمه؛ لاتقاء تراب الحفر، بعد أن صار يبعد ما يقرب من ثلاثمائة متر عن زنزانة الحبس الانفرادي، ومترين ونصف عن حريته..

مرة أخرى انتشى بالفكرة، وقرب منه ذلك المصباح، الذي يضئ له النفق الضيق، ثم عاود الحفر..

كانت قد بقيت ساعات ثلاث على الفجر، ولابد وأن ينتهي قبل الفجر، وقبل موعد تغيير الحراسة على أسوار السجن، عندما يكون الحراس، الذين قضوا الليل ساهرين في أوج الإرهاق، وفي أبطأ سرعات استجاباتهم..

وهكذا واصل الحفر..

وواصل..

وواصل..

وبعد ساعة وربع من الحفر المتواصل، توقف مرة أخرى لالتقاط أنفاسه، وعلى الرغم من التراب المحيط بكل شيء من حوله، ابتسم ابتسامة كبيرة..

لقد بلغ لحظة الخلاص بالفعل..

ضربة أخيرة، ويلتقط أنفاسه من الهواء النقي..

هواء الحرية..

استجمع ما تبقى من قواه، وضرب بالملعقة الكبيرة ضربته الأخيرة..

وانفتح النفق..

أخيرًا..

مع فارق واحد..

فالنفق لم ينفتح على هواء نقي..

لقد انفتح على ما يبدو أشبه بكهف مظلم، تنبعث منه رائحة اعتاد أن يكون هو مسببها دومًا..

رائحة موت..

انتفض جسده، وهو يهتف في أعماقه:

- مستحيل!!.

حدق في ذلك الكهف أمامه، وهو يغمغم في عصبية، ناجمة عن إحباط قاتل، وغضب شديد:

- لا يمكن!!.. لقد راجعت الخريطة خمس مرات، قبل أن أبدأ الحفر، وفي كل مرحلة من مراحله..

رددها خمس مرات، قبل أن ينقبض قلبه في شدة..

الخريطة، التي أجرى عليها كل حساباته، أحضرتها له زوجته..

فهل خدعته، طوال كل هذه السنين..

هل تركته يحفر النفق، طوال هذه السنين، وفقا لخريطة زائفة، لكي تحفر هي، في صبر مماثل، نفقًا إلى ثروته، التي أخفاها في إحكام، قبيل إلقاء القبض عليه؟!..

هل؟!..

استعاد زيارتها الأخيرة في ذاكرته، عندما اضطر إخبارها عن مخبأ النقود؛ لكي تحضرها معها، عند انطلاقهما للمطار..

لقد خدعته القذرة..

خدعته وخانته..

وربما تنعم بثروته الآن مع آخر..

امتلأت نفسه بالغضب، عندما جال هذا الاحتمال الأخير بخاطره، ووجد نفسه يصرخ داخل الممر الضيق:

- أقسم أن أنتقم منكِ أيتها الخائنة، عندما..

قبل أن يتم صرخته، مرق ذلك الشيء فجأة، عند طرف عينه..

شيء ما، مرق في سرعة، عبر تلك الفتحة، التي تطل على الكهف المظلم..

وانتفض جسده..

انتفض في قوة..

وفي رعب..

فذلك الشئ، حسبما لمحته عيناه، لم يكن كائنًا صغيرًا..

لقد كان شيئا كبيرا..

شي في حجمه هو تقريبًا..

في حجم رجل..

ولو أنه يثق في بصره جيدًا، فقد لمح في نهاية ذلك الشيء ذيل..

نعم ذيل..

ذيل لا يشبه أي ذيل رآه، لأي مخلوق حي...

ولكنها كانت مجرد لمحة..

لمحة، لا يمكنها أن تكفي للجزم بشيء..

أي شئ..

كان جسده يرتجف، وهو يحمل مصباحه، ويقربه من الفتحة في حذر..

كان كهفا بالفعل..

كهف رطب الجدران، تسيل على جدرانه وأرضيته مادة غريبة، ليست لها خفة الماء، ولا لزوجة الزيت...

مادة خضراء، هي وسيط بين هذا وذاك..

ولكن لم يكن هناك أي شيء يتحرك..

وهذا ما أشعره بلمحة من الارتياح..

وبكل توتره غمغم، محاولا تهدئة نفسه:

- إنه خداع بصري.. حتمًا هو خداع بصري..

استعاد مصباحه ويأسه، وهو يدور بجسده داخل النفق الضيق، في مرونة اكتسبها بعد خمس سنوات من الحفر، عندما تسمر جسده كله دفعة واحدة..

إنه صوت أنفاس..

نعم..

أنفاس سريعة واضحة..

ليست لاهثة..

أو متعبة..

إنها أنفاس منتظمة..

هادئة..

ومتحفزة..

أنفاس وحش، يتأهب للانقضاض على فريسته..

وحش مفترس..

شرس..

لا يرحم..

باختصار.. وحش مثله..

نعم.. وحش مثله..

وحش يقتل ويعتدي، دون أن يطرف له جفن..

اعترف لنفسه، في هذه اللحظة فقط، أنه عاش كالوحش..

وحش مفترس..

وعلى الرغم من الانتفاضة، التي شملت كل خلية من خلاياه، تجمد جسده في مكانه، ولم يستطع الحركة، على الرغم من أن رأسه كان قد اتجه نحو طريق العودة إلى زنزانته..

ومن خلفه، بدت تلك الأنفاس واضحة..

مخيفة..

رهيبة..

ولسبب ما، استرجع ذهنه في سرعة تفاصيل الخريطة...

لقد عكست زوجته الاتجاهات على الخريطة..

وبينما كان يحفر طريقه إلى خارج أسوار السجن، كان في الواقع يشق طريقه إلى مقبرة المساجين..

تلك المقبرة الصغيرة خلف السجن، التي يتم فيها دفن المساجين، الذين يلقون حتفهم في السجن، ولا يطالب بجثتهم أحد..

ترددت العبارة في ذهنه، وهو يرتجف في شدة..

مقبرة المساجين..

هل وصل بالفعل إلى مقبرة المساجين؟!..

مقبرة القتلة والسفاحين، الذين لقوا حتفهم، على أيدي زملاء لهم، أو انتهت حياتهم بحبل المشنقة، ولم يطالب بهم أحد..

مقبرة أحقر وأسوأ أنواع المساجين..

كل هذا تلاشي من رأسه دفعة واحدة، عندما سمع تلك الأنفاس الشرسة تقترب منه..

وتقترب.. وتقترب..

ثم سمع ذلك الصوت، الذي ارتجف له جسده بمنتهى العنف..

صوت هو مزيج من الفحيح والزمجرة..

وكل هذا امتزج بصوت زحف..

ذلك الشئ، أيا كانت ماهيته، كان يزحف خلفه..

ومن كل ذرة في كيانه، تفجر رعب هائل...

رعب جعله، وهو السفاح الرهيب، يطلق صرخة عالية، ويزحف بكل سرعته، عبر نفق طوله ثلاثمائة متر..

كان يزحف بكل سرعته، وذلك الشيء يزحف خلفه، وأنفاسه تتعالى..

وتتعالى..

وتتعالى..

وراح (صالح) يصرخ..

ويزحف..

ويرتجف..

لم يكن يتصور أنه قادر على الزحف بهذه السرعة..

ولكنه فعلها..

وتعالى ذلك الصوت المخيف من خلفه..

إنه سباق بين وحش..

ووحش..

كانت صرخاته عالية، حتى أنها بلغت نهاية النفق، على نحو جعل الضابط النوبتجي وشاويش الحبس الانفرادي يسرعان إلى الزنزانة..

وفي ذهول، بدا لهم مدخل النفق، الذي تنبعث منه صرخات (صالح)..

وبكل ذهوله، هتف الضابط:

- كيف فعل هذا؟!

هتف الشاويش في هلع:

- لست أدرى؟.. أقسم أنه لا يد لي في هذا..

كانت صرخات (صالح) تقترب، وتتعالى..

وتتعالى..

وتتعالى..

وفي حركة غريزية، سحب الضابط مسدسه، وصوبه إلى مدخل النفق في توتر وتحفز..

ثم ظهر رأس (صالح)، عند مدخل النفق..

ورآهما..

وبكل رعبه، مد يده إلى الضابط، صارخًا:

- أنقذني.. أرجوك.

صرخ فيه الضابط:

- هذا الخداع لن يفيدك يا (صالح).

صرخ (صالح):

- ليست خدعة.. أقسم لكم.. أنقذاني.. أرجوكما.

تراجع الضابط، وهو يصوب إليه مسدسه، في تحفز أكثر. و..

وفجأة، ارتجف جسده في قوة، وقفز الشاويش من مكانه، وهو يصرخ في هلع:

- لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.

فمن داخل النفق، امتدت يد حرشفية ذات مخالب طويلة حادة ملتوية، من فوق رأس (صالح)، ثم انغرست في ظهره، وجذبته في قوة إلى داخل النفق، وهو يصرخ..

ويصرخ..

بكل الرعب والألم..

أما الضابط والجندي، فقد جمدهما الذهول والرعب، وهما يستمعان إلى صرخات (صالح)، التي تبتعد، وتضعف، حتى توقفت تمامًا..

ومنذ ذلك الحين، على الرغم من أن الأمر لم يسجل في أي تقرير رسمي، ومن أن مدخل النفق تم سده بجدار كامل من الأسمنت المسلح، فإن تلك الزنزانة بالذات لم تعد تستخدم في ذلك السجن..

أبدًا.

مصيف الأحلام..

"شقة رائعة...".

هتفت (فريدة) بالعبارة في إعجاب، وهي تتجول في تلك الشقة ذات الحجرتين، التي استأجرها زوجها (نبيه)، لقضاء أسبوع فيما أسماه (مصيف الأحلام)..

(مرسى مطروح)..

ومع هتافها، ابتسم (نبيه) في ارتياح، وداعب رأس طفله الوحيد (أدهم) قبل أن يلتفت إلى السمسار، قائلًا:

- اتفقنا... سنستأجرها.

أدهشه ذلك التردد، الذي ارتسم على وجه السمسار، وهو يقول:

- لو أردت رأيي يا باشا، فالشقة اليمني أفضل لكم.

استدارت إليه (فريدة)، في حركة حادة، أقرب إلى الشراسة، وهي تهتف:

- كلا بالطبع.

أدرك (نبيه) أن (فريدة) ستتحول هنا إلى (زينة)، وسترفع سيف لسانها في وجه السمسار، وستقاتله بكلماتها الحادة..

وهي لا تقبل الهزيمة، في مناقشة قط..

ستبارز..

وتبارز..

وتبارز..

حتى تنتصر..

وبأية وسيلة..

ولهذا فقد أثر الصمت، واتخذ مجلسه على مقعد قريب، وترك (فريدة) تكمل، بنفس الحدة الشرسة:

- الأثاث هنا أفضل كثيرًا، ودورة المياه تعمل بكفاءة، بخلاف تلك في الشقة اليمني.

غمغم السمسار، في توتر واضح:

- وعلى الرغم من هذا، فهي أفضل لكم.

واصلت هجومها الشرس، وكأنها لم تسمعه:

- ثم أن المشهد هنا أفضل كثيرًا...إننا نرى البحر مباشرة، ومن زاويتين، و...

قاطعها السمسار، وكأنما نفد صبره:

- إذن فأنتم تصرون على استئجار هذه الشقة.

كان (نبيه) قد وعد نفسه بالتزام الصمت، مهما كانت طبيعة الحوار، إلا أنه، وعند هذه النقطة، وجد نفسه يسأل في حيرة:

- لماذا تحاول أن تثنينا عن استئجار هذه الشقة؟!.. ألم تقترحها بنفسك، عندما اتصلت بك هاتفيا من (القاهرة)؟!

أشار السمسار بيده، وقال بلهجة من يتبرأ من أمر مشين:

- لقد تحدثت مع ابني، وليس معي.

سأله (نبيه) في حيرة أكثر:

- وما الفارق؟!

أجاب السمسار في خفوت، لم يكن له ما يبرره:

- إنه لا يعلم.

سأله (نبيه)، وقد بلغت حيرته ذروتها:

- يعلم ماذا؟!

التقط الرجل نفسًا عميقًا، ولوح بيده مرة أخرى، وهو يقول:

- ما دمتم تصرون، فليكن.

تألقت عينا (فريدة) بالظفر، في حين شعر (نبيه) بالارتياح؛ لانتهاء الأمر عند هذا الحد، وأسرع ينقد السمسار، ما تبقى له من أجر الشقة، وعمولته الشخصية، ثم لم يكد يغلق الباب خلفه، حتى التفت إلى (فريدة)، هاتفًا في سعادة:

- الآن فقط نبدأ إجازتنا في مصيف الأحلام.. هيا... استبدلي ملابسكِ، فلست أرغب في إضاعة لحظة واحدة.

بدا صوتها أشبه بالزمجرة، وهي تقول:

- لا يمكننا هذا.. لقد نام (أدهم)، ولابد وأن ننتظر حتى يستيقظ.

بدت على وجهه علامات خيبة الأمل، وهو يغمغم:

- بالطبع.

وضعت (فريدة) ابنها في فراشه برفق، ورقدت إلى جواره، وسرعان ما غلبها إرهاق السفر، من (القاهرة) إلى (مرسى مطروح)، فراحت بدورها في سبات عميق..

وعندما وجد (نبيه) نفسه وحيدًا، اتجه إلى حجرة النوم الثانية، واستغرق مثلهما في سبات عميق..

ولكن العجيب أنه، وعلى الرغم من استغراقه في النوم، لم يشعر بالارتياح..

وهذا بسبب هذا الكابوس...

كابوس عجيب، رأى نفسه فيه في عرض البحر، يصارع أمواجًا عالية قوية، ويحاول السباحة بكل قوته، ولكن ذراعاه لا يطاوعانه..

ورأى نفسه يقاوم..

ويقاوم..

ثم تنهار مقاومته فجأة..

ويغرق..

تثاقلت أنفاسه، وشعر وكأن رئتيه تنفجران، و..

واستيقظ من نومه بحركة حادة..

وسعل في قوة..

لوهلة، تصور أنه يسعل بسبب كابوس الغرق..

ثم انتبه فجأة إلى أنه يسعل لسبب آخر تمامًا...

ففي حجرته، كانت هناك رائحة غاز بوتاجاز، جعلته يقفز من فراشه، ويعدو نحو المطبخ..

ولدهشته، وجد جميع دوائر الموقد مفتوحة، والغاز يتسرب منها إلى الشقة كلها..

وبسرعة، أغلق كل الدوائر، وهو يسعل بشدة، ثم عدا ليفتح كل نوافذ الشقة وشرفتها، قبل أن يهرع إلى زوجته وابنه..

أيقظ (فريدة) في توتر شديد، جعلها تهتف:

- ماذا هناك؟!

التقط انفها بقايا رائحة الغاز، فهتفت:

- ماذا حدث؟!

بح صوته، وهو يهتف بها:

- (أدهم).. اطمئني على (أدهم).

أسرعت توقظ ابنها، واستراح كلاهما، عندما استيقظ حائرًا، يتساءل بدوره عما حدث..

يومها فصل (نبيه) اسطوانة الموقد عن الموقد، وأغلقها في إحكام، ونقلها إلى الحمام الإضافي، وترك نافذته مفتوحة، قبل أن يغلق بابه في إحكام..

ولساعة أو أكثر، راحت (فريدة) تناقشه عما حدث، وتتهمه بأنه ترك الدوائر مفتوحة دون أن ينتبه..

ولأن المناقشة معها - أية مناقشة- غير مجدية على الإطلاق، فقد اكتفى بأن قال: إنه (ربما) فعل..

وانتهت الليلة الأولى في سلام..

وفي الصباح التالي، خرج (نبيه) و(فريدة) مع ابنهما (أدهم) إلى الشاطئ، وسبحا معًا لثلاث ساعات، وكان يومًا ممتعًا، عادوا بعده إلى الشقة، وكل ما يفكرون فيه هو الطعام..

والنوم..

ومع مغيب الشمس، استغرق (فريدة) في نوم عميق، وهي تحتضن (أدهم)، وخرج (نبيه) إلى الشرفة، واستلقى على أريكة مطاطية بها، وسرعان ما راح بدوره في سبات عميق..

وفي هذه المرة أيضًا راوده الكابوس نفسه..

يغرق..

يقاوم..

يصارع الأمواج..

وفي هذه المرة، ضرب رذاذ الماء وجهه، وتقاطر عليه، و..

انتبه فجأة..

لم يكن قد فتح عينيه بعد، عندما شعر بتلك القطرات الباردة، تتساقط على وجهه، وتسيل على خده، لتلمس شفتيه، و..

وانتفض جسده كله..

فالمياه لم تكن من قطرات الندى، كما تصور في البداية..

بل كانت مياه مالحة..

مياه بحر..

وفي حركة سريعة، فتح عينيه..

وانتفض جسده مرة ثانية..

وفي تلك المرة الثانية، كانت الانتفاضة أقوى..

ألف مرة..

فعندما فتح عينيه، ارتطم بصره بذلك الوجه البشع، الذي ينحني على وجهه، من خلف رأسه..

وجه نحيل..

ممصوص..

جاحظ العينين..

أزرق اللون..

يتقاطر الماء المالح من شعره المبتل، على وجهه مباشرة..

وعلى الرغم منه، أطلق (نبيه) شهقة رعب، ووثب جالسًا على طرف فراشه..

ولم يجد شيئا..

اختفى الوجه وصاحبه تمامًا..

وبقيت قطرات الماء المالح على وجهه.

ارتجف جسده كله، وقرر أن يدخل ليشارك زوجته وابنه حجرتهما، لعله يجد لديهما الدفء والشعور بالأمان..

وعلى الرغم من طعم الماء المالح في فمه، ومن ساقيه المرتجفتين، حاول إقناع نفسه بأن ذلك الوجه لم يكن سوى استمرار للكابوس الذي عاشه..

وفي تلقائية، دفع الباب الزجاجي للشرفة، حتى يدخل المنزل..

وانفتح الباب قليلا..

ثم ارتد في قوة..

ارتد كما لو أنه هناك قوة تدفعه في الاتجاه المضاد..

وبكل رعبه، دفع (نبيه) الباب الزجاجي مرة ثانية..

وثالثة..

ورابعة..

وفي كل مرة كان الباب يفتح، ثم يرتد في قوة..

وتسارعت نبضات قلبه في رعب، تضاعف ألف مرة، عندما شاهد خيط الماء، الذي يمتد من مدخل الشقة إلى الشرفة، كما لو أنه هناك من سار مبتلا، حافي القدمين، عبر هذا المسار..

وصرخ الرعب في أعماقه باسم زوجته وابنه..

إنهما على الجانب الآخر..

الجانب الذي يدفع باب الشرفة؛ ليرتد في وجهه..

الفكرة جعلته يستجمع قواه، ويضرب باب الشرفة بكل قوته..

وفي هذه المرة، انفتح الباب..

وبكل قوته، ودون أن يضيع لحظة واحدة، اندفع نحو حجرة زوجته وابنه، وأيقظ (فريدة)، التي استيقظت مذعورة، وهو يهتف بها مرتجفًا:

- هيا.. اجمعي الحقائب، سنغادر هذه الشقة فورًا.

تساءلت مذعورة:

- ولماذا؟!.. ماذا حدث؟!

أجابها في عصبية:

- لم أعد أحتملها.. سنقضي الليل في أي فندق، ثم سنعود غدا إلى (القاهرة).

أدهشها موقف بشدة، وحاولت أن تسأله عن السبب، إلا أنه كان شديد الإصرار والحزم..

وقبيل منتصف الليل بقليل، استقر بهم المقام في فندق كبير..

ومنفردًا، أجرى (نبيه) اتصاله بالسمسار، وصاح به، ما أن سمع صوته:

- ماذا يوجد بتلك الشقة اللعينة؟!

بدا له صوت السمسار مرتجفا، وهو يقول:

- لقد نصحتكم باختيار الشقة اليمني.

كرر (نبيه) سؤاله صارخا، فغمغم السمسار في بؤس:

- الشقة كانت ملكًا لرجل نحيل أعذب، غرق بالقرب من الشاطئ، وتم نقله إلى الشقة، ومنذ ذلك الحين..

أغلق (نبيه) الهاتف في وجهه، قبل أن يكمل روايته..

فلم يكن بحاجة لسماع الرواية..

لقد عاشها بنفسه..

وبكل ذعره وهلمه..

وفي السادسة صباحًا، كانت سيارته تنطلق به وبزوجته وابنه، عائدة إلى (القاهرة)..

وحاولت (فريدة) أن تعرف سر كل هذا..

حاولت..

وحاولت..

وحاولت..

استخدمت كل أساليبها..

الشراسة..

والعنف..

والحدة..

ثم اللين..

والود..

والدلال..

وأخيرًا، استسلمت للأمر، وانهزمت لأول مرة في حياتها..

فحتى لحظة كتابة هذه السطور، لم يخبرها (نبيه) بما حدث..

أبدًا.

استجواب...

عيناه ثقيلتان..

رأسه يدور..

ذهنه مشوش..

وفي بطء، يفتح عينيه..

ما هذه الحجرة؟!..

حجرة صغيرة، بها مكتب واحد، أمامه مقعدين، وإلى جواره مقعد صغير..

الإضاءة خافتة..

الهواء مشحون برائحة عجيبة..

"هل تسمعني جيدًا؟..."..

انتفض جسده، مع السؤال المفاجئ، الذي لم يتبين مصدره في البداية، ثم سرعان ما انتبه إلى أنه يأتي من خلفه، فالتفت ليرى شابًا وسيمًا، يدور من حوله، ليجلس خلف ذلك المكتب المنفرد..

وفي هدوء، ظهر شاب وسيم آخر، اتخذ المقعد المجاور للمكتب..

هذا المشهد مألوف لديه..

إنه أمام وكيل نيابة، والجالس إلى جوار المكتب هو سكرتير النيابة..

لقد مر بهذا من قبل..

إذن فقد أوقعوا به..

لهذا يشعر بذلك الألم الشديد، في مؤخرة رأسه..

لقد ضربه أحدهم بشومة أو هراوة، أفقدته الوعي..

التقط نفسا عميقا، وهو يجيب:

- اسمعك جيدا يا سيادة وكيل النيابة.

رمقه وكيل النيابة بنظرة نارية، قبل أن يخفض عينيه إلى الأوراق أمامه، قائلا:

- تميل إلى الإجرام منذ طفولتك.

مط شفتيه، وهز كتفيه، قائلا:

- لو راق لك أن تصف الأمر بهذا.

تجاهل وكيل النيابة تعليقه تمامًا، وقال وكأنه يقرأ ملفًا أمامه:

- كل محاولات إصلاحك فشلت، منذ كنت في الخامسة من العمر.. فررت من والديك خمس مرات، ومن دار الرعاية أربع مرات، وسجلت أول سابقة لك، في الثانية عشرة من العمر.

زفر في ملل، قائلًا

- هل سنقضي الوقت في استعراض تاريخ حياتي؟!..

مرة أخرى تجاهله وكيل النيابة تماما، وهو يكمل:

- في العشرين من عمرك، تحولت من سارق ولص، إلى قاتل مأجور، يريق الدم مقابل المال.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة، وهو يغمغم:

- لا يمكنكم اثبات هذا.

مرة ثالثة، تجاهله وكيل النيابة تمامًا، متابعًا:

- ارتكبت خلال السنوات التسع التالية ثمان وعشرين جريمة قتل، للآتي أسماءهم.

راح وكيل النيابة يذكر قائمة الأسماء في هدوء، في حين لم يستطع هو كتمان الدهشة، التي وجدت سبيلها إلى وجهه وعينيه، وهو يستمع بكل حواسه إلى وكيل النيابة..

هذا مستحيل!!..

إنهم يعرفون امورا، يستحيل أن يعرفها أحد..

وبأدق أدق التفاصيل...

حتى جرائم القتل التي ارتكبها، على نحو جعلها أشبه بحادث عرضي، والتي انتهى التحقيق الرسمي فيها إلى هذا، يذكرونها..

والسؤال، الذي يكاد يشق رأسه هو كيف؟!..

كيف؟!..

كيف؟!..

انتهي وكيل النيابة من سرد القائمة شديدة الدقة، ثم رفع عينيه إليه، قائلًا:

- كان المفترض أن تقتل المستشارة (هناء أبو جبل) الليلة، لولا ما حدث.

قال في عصبية:

- هراء.

رمقه وكيل النيابة بنظرة نارية أخرى، وقال في صرامة:

- لا يوجد هراء في حرف واحد هنا.

قال في حدة:

- لن تحصل منى على اعتراف واحد، وأيضًا بأي حرف مما ذكرته الآن.

صمت وكيل النيابة لحظات، ثم قال:

- لسنا في حاجة إلى اعترافك.

ويا له من قول!!..

أي وكيل نيابة هذا، الذي لا يطلب اعترافا من قاتل؟!..

ألديه من الدلائل، ما يجعله لا يبالي بالاعتراف؟!..

أمن الممكن هذا؟!..

إنه شديد الدقة دوما، فيما يتعلق بهذا..

حتى الحمض النووي، يحرص على ألا يتركه خلفه..

لا بصمات..

أو سوائل جسدية..

أو آثار أقدام..

لا شيء يتركه خلفه على الإطلاق..

ولهذا عجزوا عن إدانته دوما..

ثم كان هؤلاء السياسيون، الذين حرصوا على عدم إدانته طوال الوقت..

هذا لأن اعترافه أو سقوطه، يعنى سقوط بعضهم بالتبعية..

فكثيرًا ما أدى الخدمات لبعضهم..

القضاء على منافس قوى..

أو التخلص من صحفي عنيد..

أو حتى إطلاق نار وهمي، خلال الدعاية الانتخابية؛ لجذب حالة من التعاطف نحو السياسي، قبيل ساعات من بدء الاقتراع..

معظمهم على علاقة به..

يستفيدون من خدماته..

ويدفعون بسخاء..

ويحمونه أيضًا..

"أريد إجراء محادثة هاتفية...".

قالها في صرامة، مواجها وكيل النيابة، الذي ظل محتفظًا بهدوئه، وهو يقول:

- لا اتصالات هنا.

- ولكن هذا حقي... أريد الاتصال ببعضهم.... أو بمحاميّ الخاص على الأقل.

مال وكيل النيابة نحوه، قائلا:

- أخبرتك إنه لا اتصالات هنا.

انعقد حاجباه، وهو يقول في غضب:

- إنها ليست اتصالات عادية.. أريد الاتصال بصديقي (عماد العريان)، أو صديقي (محمد موسى).

كان ذكر الاسمين يكفي- في المعتاد - لقلب الأمور رأسًا على عقب، ولكن وجه وكيل النيابة لم يحمل ذرة من التأثر، وهو يكرر:

- لا اتصالات هنا.

تراجع في عصبية شديدة، ولوح بذراعه، قائلا:

- بدون محام، لا يمكنك إدانتي.

مرة جديدة، رمقه وكيل النيابة بتلك النظرة النارية، قبل أن يقول:

- كل مجرم يلقى جزاءه في النهاية.

أشار هو بسبابته، قائلًا في تحدٍ عصبي:

- ليس كل مجرم.

هر وكيل النيابة رأسه، قائلًا:

- بل كلهم... في الدنيا، أو في الآخرة.

الابتسامة الساخرة، التي ارتسمت على شفتيه، جعلت وكيل النيابة يسأله في اهتمام:

- ألا تؤمن بالحساب بعد الموت؟!

امتزج الاستهتار بالسخرية في ابتسامته، وهو يقول:

- وهل تؤمن أنت به؟!

اعتدل وكيل النيابة، مجيبا:

- دون ذرة واحدة من الشك.

بدا أكثر سخرية واستهتار، وهو يقول:

- أفق يا رجل... كل هذه خزعبلات لا دليل عليها... حياة بعد الموت، وحساب وعقاب، وجنة وجحيم.. كيف يمكن أن يؤمن مثقف مثلك بهذا؟!..

ظل وكيل النيابة هادئًا لحظات، قبل أن يقول:

- إذن فانت لا تؤمن بالله عز وجل؟!

أجابت ابتسامته الساخرة السؤال، قبل أن يلوح بيده، قائلًا:

- فكرة سادية عجيبة، أن يلقى بك في النار، التي تلتهم جسدك، وتذوق فيها عذابًا رهيبًا، ثم يتجدد جلدك، ويحترق مرة ثانية، وهكذا..

لم يجب وكيل النيابة أو يحرك ساكنًا، أو يحاول حتى التعليق على قوله، وهو ينظر إليه في إمعان، فاعتدل هو، وهو يقول في حزم:

- أنت لست وكيل نيابة.

صمت وكيل النيابة لحظات، ثم سأله في هدوء:

- لماذا افترضت هذا؟!

أجابه في ثقة:

- لأنك لا تبالي بإدانتي.

غمغم وكيل النيابة:

- أنت مُدان بالفعل.

هتف:

- هراء... هذه اللعبة لن تخدعني... أنت لست وكيل نيابة حتمًا.

مرت فترة من الصمت، قبل أن يقول وكيل النيابة:

- من أنا في رأيك؟

أجابه في سرعة:

- مندوب عن بعض الكبار، الذين يسعون لاستغلال مواهبي.

غمغم وكيل النيابة:

- أهكذا يبدو لك الأمر؟!

هتف في ثقة:

- بالتأكيد... أنتم فقط تحاولون إدارة الأمر لصالحكم، بحيث أخشى أن تكون الشرطة قد حصلت على كل أدلة اتهامي، فأتعامل معكم في خضوع، باعتبار أن البديل الوحيد هو إعدامي.

أجابه وكيل النيابة بكل هدوء:

- هذا مستحيل.

اعتدل يسأله في دهشة:

- ولماذا مستحيل؟!

أجابه وكيل النيابة:

- لأنك يستحيل أن تموت، وإن كنت ستتمنى الموت في كل لحظة.. بل في كل جزء من الثانية.

لم يفهم معنى هذا، فقال في حدة:

- كل البشر يموتون في النهاية.

مال وكيل النيابة نحوه، قائلا:

- هذا صحيح.. كلهم.. بما فيهم أنت.

قالها بلهجة مخيفة، جعلته يتساءل في رهبة:

- ماذا تعني؟!

نهض الجالس إلى جوار المكتب، واتجه نحوه، في حين قال وكيل النيابة في هدوء:

- أنت ميت بالفعل.

مع قوله، شعر هو مرة أخرى بذلك الألم خلف رأسه، فمد يده إلى مؤخرة رأسه، ووجدها تغوص في ثقب كبير في جمجمته، في نفس الوقت، الذي انتزعه فيه الشخص الآخر من مكانه، واتجه به نحو الباب، ووكيل النيابة يضيف بنفس الهدوء:

- مرحبًا بك في الجحيم، حيث يتمنى الكل الموت فلا يجدونه.

وفتح الآخر الباب، فظهرت ألسنة اللهب الرهيبة خلفه...

وصرخ هو، وصرخ، ولكن الآخر دفعه نحو ألسنة اللهب الهائلة...

حيث لا موت...

على الإطلاق.

اللعنة!..

ابتسامة كبيرة، ارتسمت على شفتي الممثل الشهير (حامد عزيز)، عندما سأله صديقه عالم الآثار:

- هل تؤمن بلعنة الفراعنة؟!

ولما لم يجب (حامد)، مال صديقه (نادر) نحوه، مستطردًا:

- كثيرون يؤمنون بها.

مز (حامد) كتفيه، مجيبًا

- وكذلك الأشباح، والأرواح، والعفاريت، وذي القدم الكبيرة، ووحش (لوخ نيس)، ورجل الجليد... كثيرون يؤمنون بكل هذا، على الرغم من أنه لا يوجد دليل واحد، على وجود أي منهم.

اعتدل (نادر)، وقال:

- أنت لا تخشى المقابر الفرعونية إذن؟

أجابه (حامد) في حزم:

- مطلقا.

عاد يميل نحوه، قائلا في تحدٍ:

- اثبت هذا إذن.

عاد (حامد) يبتسم، وهو يشير بيده، قائلًا

- كيف؟!.. هل أكتب إقرارًا بذلك؟!

اعتدل (نادر)، مجيبا بنفس التحدي:

- اصطحبني إلى مقبرة فرعونية حديثة الكشف.

لم يكن (حامد) لديه وقت لهذا، ولكنه خشي أن يتهمه صديقه بالكذب، فقال في حزم:

- لا بأس... متى؟!

انتقلت الابتسامة إلى وجه (نادر)، وهو يقول:

- غدا صباحًا.

أزعج هذا (حامد) كثيرا، ولكنه كان مستعدا في الصباح التالي ارتدي سروالًا من الجينز، وقميصًا قصير الأكمام، وكابا يحمل شعار ناديه المفضل، وانتظر سيارة (نادر) أمام منزله..

وفي الموعد بالضبط، وصل (نادر)..

وطوال ساعة، قطعت بهما سيارته رباعية الدفع الطريق، من منزل (حامد) إلى ما بعد أهرامات (الجيزة)، حيث تلك المقبرة حديثه الكشف...

وأمام المقبرة، سأله (نادر) للمرة الأخيرة:

- ألا تخشى دخولها؟!

قال (حامد) في ثقة:

- مطلقا..

ابتسم (نادر) ابتسامة، رأها (حامد) أشبه بالتحدي، فتتبعه في حزم إلى داخل المقبرة، وسار خلفه في ممراتها الضيقة، حتى بلغا حجرة الدفن، التي تمددت فيها مومياء فرعونية، داخل تابوت من النحاس، أشار إليه (نادر)، قائلا:

- ليس من المعتاد أن يستخدم الفراعنة توابيتًا من النحاس.

هز (حامد) كتفيه، قائلًا:

- لست أعرف الكثير عنهم.

عادت ابتسامة (نادر) إلى شفتيه، وهو يقول:

- ربما تعرف الكثير عنهم اليوم.

حاول (نادر) أن يبادله الابتسام، إلا أنه لم يشعر برغبة جادة في هذا، فرسم ابتسامة باهتة على شفتيه، وهو يتلفت حوله، على ضوء مصباح (نادر) اليدوي، قائلًا

- أهذا كل شيء؟!.. لا يوجد ذهب أو مجوهرات؟!

اتسعت ابتسامة (نادر)، وهو يحرك ضوء مصباحه اليدوي، على نحو مزعج:

- ليس في كل مقبرة تجد الذهب والمجوهرات.

أشار (حامد) بيده، قائلا:

- ولكنني قرأت أنه توجد دومًا أوانٍ خاصة، لحفظ أحشاء المومياء...

واصل (نادر) حركة مصباحه المستفزة، وهو يجيب:

- هذا صحيح... اسمها أوانٍ (كانوبية).

تلفت (حامد) حوله، متسائلًا:

- لست أرى شيئًا منها هنا.

لم يجب (نادر) هذه المرة، فاستدار إليه (حامد) يسأله:

- أين يفترض أن تكون؟!

هَمَّ (نادر) بإجابته، و..

وفجأة، انقطع ضوء مصباحه اليدوي..

وساد ظلام دامس مفاجئ..

ومع الظلام، ارتفعت شهقة (نادر)..

شهقة تجمع ما بين الدهشة..

والاستنكار..

والرعب..

كل الرعب..

ولما لم يكن يرى شيئا، راح (حامد) يلوح بيديه، قائلًا في توتر:

- (نادر).. أين أنت؟!.. ماذا حدث؟!

لم يتلق جوابا من (نادر)..

بل ولم يسمع أي صوت..

وبدا له الظلام دامسا للغاية..

وبكل توتره، هتف (حامد) مكررًا:

- أين أنت؟

ومرة أخرى، لم يتلق جوابًا..

وتضاعف توتره..

تضاعف ألف مرة..

هتف (حامد) ينادي (نادر) بصوت أعلى..

وأعلى..

وأعلى..

ثم تولاه فزع حقيقي، جعله يصرخ:

- لماذا وافقتك على هذه الحماقة؟!.. لست أرى حتى طريق الخروج من هنا.

راح يتحسس الجدران، محاولا البحث عن الفتحة، الى وصلوا عبرها إلى حجرة التابوت..

وبكل فزعه، دار على جدران الحجرة الأربعة..

تحسس كل الجدران، في رحلة دائرية كاملة..

وتضاعف فزعه ألف مرة، عندما لم يجد تلك الفتحة..

وهذا مستحيل!!..

إنها حجرة مربعة، والفتحة كانت تكمن في منتصف أحد جدرانها..

فأين ذهبت؟!..

أين؟!..

مستحيل أن تكون قد اختفت أو تلاشت!!.

مستحيل!!..

ولكنه دار حول الجدران مرتين، دون أن يعثر لها على أثر..

وبكل قوته وتوتره وفزعه صرخ:

- هل يسمعني أحد؟!.. أريد الخروج من هنا... أخرجوني من هنا..

كرر صراخه هذا مرة..

وثانية..

وثالثة..

ولم يستجب له أحد..

وعندئذ انفلتت مشاعره..

ووجد الدموع تنساب من عينيه، دون أن يملك لها تراجعًا..

وراح يبكي في صوت مسموع..

وجلس القرفصاء، وهو يخفي وجهه بين يديه، ويسكب دموعه على راحتيه و..

وفجأة سمع تلك الحركة القريبة منه..

كان صوت أقدام تزحف..

كائن ما يقترب منه..

كان يسير على قدمين..

في تلك اللحظة شعر أنها خدعة سخيفة من (نادر)، فصرخ:

- (نادر)... أهو أنت؟ ...

اقتربت منه الأقدام أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

ومع دقات قلبه، التي وثبت إلى ذروتها، بدأ يشعر بأنفاس على عنقه..

ليست أنفاسًا حارة كأنفاس البشر..

بل أنفاس باردة..

باردة كالثلج..

وهنا، صرخ بكل رعب الدنيا..

وانهار تمامًا..

وراح جسده يتشنج بشدة، وخاصة عندما لامست تلك الشرائح الكتانية القديمة، ذات الرائحة الجافة وجهه...

وبكل رعبه، صرخ:

- رباه!!... إنها حقيقة.. لعنة الفراعنة حقيقة.

وامتدت يد محاطة بشرائط الكتان الجافة القديمة نحوه، ولامست وجهه كله، فانحبست أنفاسه، واتسعت عيناه عن آخرهما، وشعر بروحه تخرج من جسده، و..

وفجأة، أضيئت الأضواء، وارتفع حاجز من الحجر، كان يخفى فتحة دخول وخروج المقبرة، وقفز (نادر) داخل حجرة الدفن، وهو يهتف في مرح:

- مفاجأة.. أنت ضيف برنامج (حازم حازم) الشهير.

لم تكن الدهشة من نصيب (حامد)، بل كانت من نصيب (نادر) نفسه، عندما استقبله (حامد) بابتسامة هادئة باردة، وهو يقول:

- كنت أعلم هذا منذ البداية.

تراجع (نادر) في دهشة، وظهر من خلفه (حازم) مقدم البرنامج الشهير، وهو يقول في دهشة حقيقية:

- ولكنك بدوت مذعورًا بشدة، على عكس ما تبدو عليه الآن.

ابتسم (حامد)، وشد قامته، مجيبًا بنفس الهدوء:

- أنسيتما أنني نجم سينمائي من الطراز الأول؟ ... لقد لعبت اليوم أحد أعظم أدواري.

مد (حازم) يده يصافحه، وهو يقول:

- تهانئي يا أستاذ (حامد).. أنت أروع من استضفته، في برنامج المقالب الرمضانية هذا.

بدت له يد (حامد) باردة أكثر من اللازم، ورأى بريقًا خاصًا يطل من عينيه، فسحب يده في سرعة، مكملاً:

- ستثير حلقتك إعجاب المشاهدين في شدة.

غادر (حامد) تلك المقبرة مع (نادر)، الذي بدا شديد الحماس، وهو يقود سيارته رباعية الدفع، قائلا:

- كنت أظنك ستغضب مني.

ابتسم (حامد) ابتسامة باهتة، وهو يسأله:

- من كان صاحب فكرة اختيار مقبرة حقيقية؟!

ضحك (نادر)، وهو يجيب:

- كانت فكرتي في الواقع.

استرخي (حامد) في مقعده، وهو يقول:

- عظيم.

راح (نادر) يتحدث، ويروى كيف جالت الفكرة بخاطره، وكيف اختار مقبرة حديثة الكشف، و..

ولم يتجاوب معه (حامد)..

بل حتى لم يسمعه..

ففي استرخائه، كانت هناك أمور أخرى تدور في عقله..

أو في عقل من احتل عقله وكيانه..

كان يشعر أخيرًا بالحرية، بعد خمسة آلاف عام، قضاها في ذلك التابوت النحاسي، المختوم بلعنة تبقيه حيا، في جسد شبه ميت..

اليوم فقط أتى من حقق كل الشروط، الواجبة لزوال اللعنة..

الظلام الدامس..

الصراخ..

الرعب..

والبكاء..

وهكذا انفكت اللعنة، وتحررت طاقته، واستبدل كيانه غير المادي بكيان (حامد)، الذي من حسن حظه، يتمتع بشهرة واحترام بالغين في المجتمع..

وعندما يفحصون تلك المقبرة، ويتساءلون عن سر التابوت النحاسي، لن يتصور أحدهم أنه في تلك المومياء الميتة داخلها، كيان يصرخ بكل الرعب، وهو لا يدري متى يمكن أن يتحرر..

كيان كائن أرضى، كان يومًا اسمه (حامد عزت)..

النجم الشهير..

جدا.

الأخير..

يا لها من ليلة طويلة!!..

عندما استيقظ في الصباح، بدا له وكأنه نام دهرًا..

على عكس ما يشعر به المستيقظ في المعتاد..

فمهما كانت ساعات النوم، يشعر أي أنسان عادي، عندما يستيقظ، أنه قد قطع رحلة عبر الزمن..

أغلق عينيه في الليل، وفتحهما في النهار..

فقط..

ولكنه هو لا يشعر بهذا..

لقد عاش مئات الأحداث، خلال فترة نومه..

والعجيب أنه يذكرها كلها..

وهذا لم يحدث له من قبل قط.

دومًا كان يستيقظ، وهو لا يذكر حتى أنه قد حلم..

فما المختلف هذا الصباح؟ ...

تطلع إلى ما حوله، وكأنه يتصور أنه لم يستيقظ بعد..

ولكن كل شيء بدا على ما هو عليه..

حتى أدق التفاصيل..

ولكنه، ولسبب ما، يشعر وكأنه قد انتهى من سباق عدو طويل..

وبدلًا من أن يشعره النوم بالراحة، يشعر جسده كله بالتعب..

حتى الخروج من الفراش بدا له أمرًا مرهقًا..

استرخي أو حاول في فراشه، وشبك كفيه خلف رأسه، وهو يتأمل حجرته مرة أخرى..

إنها نفس الحجرة، التي عاش فيها، في السنوات العشر الأخيرة..

نفس الحجرة، التي استذكر فيها دروسه، حتى صار معيدًا بكلية العلوم..

الحجرة التي أنهى فيها دراسة الماجستير، حول علم الفلك..

إنها حتى نفس الحجرة، التي شهدت ساعات حبة، عبر المحادثات الطويلة على مواقع التواصل الاجتماعي..

ابتسم، عندما تذكر تلك المحادثات..

محادثاته الطويلة مع (فداء)..

خلال سنوات دراسته كلها، لم يجد وقتا للتعامل مع الجنس الآخر..

ربما لأنه انشغل بدراسته.

أو أنه لم يجد من تناسبه..

فعقليته علمية إلى حد مدهش..

وأساتذته دومًا يرون أنه عبقري..

وبالذات في علم الفلك والفضاء..

أحد أكبر أساتذته، والمشرف على رسالته، لنيل شهادة الدكتوراة، انبهر بما قرأه في رسالته، وأخبره أنه ربما ينال عنها جائزة (نوبل) في العلوم، لو تم نشرها عالميًا؛ لأنها ستكسر الكثير مما يعتقد علماء الفلك والفضاء أنه من المسلَّمَات العلمية..

وكم أسعده هذا القول..

أو هذا الإطراء..

وكم أسعده أكثر، أن (فداء) أبدت اهتمامًا بالرسالة..

وبنظريته الجديدة..

لقد أمضى ساعات يشرح لها نظريته، وهو يطير سعادة؛ لأنه عثر أخيرًا على الحبيبة التي تناسبه..

جميلة..

ذكية..

وشديدة الجاذبية..

كانا يتحدثان عبر اتصال فيديو مباشر، ويخفق قلبه مع ابتسامتها..

وضحكاتها...

وحتى أسئلتها العلمية..

أدار عينيه إلى جهاز الكمبيوتر، وهو يشعر بشوق شديد لمحادثتها..

ولكن كم تبلغ الساعة الآن..

ألقي نظرة على المنبه الرقمي المجاور لفراشه، واطمئن عندما وجد أرقامه تشير إلى التاسعة صباحًا.

هذا لأنه يعلم أن (فداء) على عكسه، تستيقظ مبكرًا..

وربما مبكرا جدا..

أسعدته فكرة التحدث معها، ودفعت إلى جسده الكثير من النشاط، فنهض من فراشه، ونفض عن نفسه الكسل والإرهاق؛ ليجلس أمام جهاز الكمبيوتر، ويضغط أزراره في حماس..

وفي سرعة لم يعتدها، أضيئت شاشة الكمبيوتر، وظهر عليها وجه (فداء)، وكأنها كانت تنتظر اتصاله، وهي تبتسم ابتسامتها العذبة، قائلة في رقة تذيب قلبه دوما:

- صباح الخير يا (حسن).

هتف من كل قلبه:

- صباح الخير يا نور قلبي.

ابتسمت في حياء، وهي تسأله:

- هل نمت جيدًا؟!..

كان يريد اختصار الوقت، في إجابة بسيطة بنعم، إلا أنه لم يشأ الكذب، فأجاب، وهو يضع على شفتيه ابتسامة؛ لتهدئة الموقف:

- بل كان نومي مرهقًا.

سألته في قلق:

- حقًا؟!

هز كتفيه، مجيبا:

- لست أدرى لماذا، ولكنني وكأنني نمت لألف عام.

تراجعت في قلق حقيقي، وهي تغمغم في تفكير:

- لألف عام؟!

أشار بيده، قائلا:

- إنه مجرد مبالغة لفظية.

بدت له نظرتها أقرب إلى الفضول العلمي، وهي تكرر غمغمتها:

- ألف عام؟!..

تنهد قائلًا:

- هل يمكننا تجاوز هذه النقطة؟!

ابتسمت ابتسامة باهتة، وسألته، دون أن تتجاوز الامر:

- ولماذا تشعر بأنك قد نمت ألف عام؟!

شعر بالضيق، وهو يقول:

- ألن نتجاوز هذا؟!

عادت إلى ابتسامتها العذبة، وهي تجيب في مرح:

- ولكنك مسست موضوع دراستي.

الحديث عن العلم جعله يسألها في فضول:

- وما موضوع دراستك؟!

أجابته في سرعة:

- النوم.

ارتفع حاجباه في دهشة، وهتف، في اهتمام:

- يا له من موضوع!

أشارت بيدها، قائلة:

- النوم حالة فريدة، من الحالات التي يمر بها البشر، ولها العديد من الصور المدهشة، على كوكب الأرض.

غلبه الأسلوب العلمي، فقال مؤيدًا:

- هذا صحيح.. فالبشر ينامون كل ليلة في المعتاد، ولكن الدببة تنام طوال سبات شتوي طويل، والـ..

قاطعته في اهتمام:

- لم تخبرني لماذا؟!

استعاد سؤالها الأول، وعلى الرغم من ضيقه من مقاطعتها له، إلا أنه أجابها:

- لست أدرى بالتحديد، ولكنني شعرت وكأن عقلي يستعيد. كل ما علمته أو عرفته أو تعلمته طيلة عمري.

سألته في اهتمام:

- وشعرت بهذا بالفعل؟!

أطلق ضحكة قصيرة، وهو يقول:

- شعور عجيب، لم أشعر بمثله قط.

مالت نحو الشاشة، تسأله في اهتمام أكبر:

- هل يمكنك أن تصفه لي.. علميا؟!

بدا عليه مزيج من الدهشة والحيرة، وهو يغمغم:

- ألهذا أيضًا علاقة بدراساتكِ حول النوم؟

صمتت لحظة، ثم تراجعت منمنمة:

- بالتأكيد..

على الرغم من اهتماماته العلمية، لم يرق له الحديث حول دراسات النوم هذه، فقال: محاولا إدارة دفة الحديث بعيدا:

- مازلت أذكر كيف كان لقاؤنا أمس.

غمغمت، وضحكة باهتة تحاول الظهور على شفتيها:

- أمس؟!

حاول بدوره أن يضحك، وهو يقول:

- نعم.. أمس... عندما شرحت لك، كيف إن نظريتي ستبرهن فكرة الفضاء المنطوي، بحيث تستطيع سفن الفضاء الأرضية أن تبلغ النجوم، التي تبعد عنا ملايين السنين الضوئية، خلال أشهر قليلة..

بدت شاردة، وهي تغمغم:

- نعم..

أدهشه شرودها هذا، فتابع، منتزعًا ضحكة من أعماقه:

- هل تعلمين ماذا حدث، بعد أن أنهينا حديثنا؟

غمغمت بنفس الشرود:

- ماذا؟

قال متصنعًا المرح:

- أويت إلى الفراش، وفردت ذراعي عن آخرهما، فارتطمت يدي بذلك المنبه الرقمي، المجاور لفراشي، فسقط وتحطم، و..

بتر عبارته دفعة واحدة، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يلتفت محدقًا في ذلك المنبه الرقمي، المستقر إلى جوار فراشه، وتمتم بكل اضطراب الدنيا:

- ولكن كيف؟!

مع تساؤله، أضيئت حجرته كلها دفعة واحدة، وبدا له أن الجدار المواجه له ينشق، كاشفًا ما بدا أنه قاعة بيضاء هائلة من خلفه..

وشهق هو في ذعر وذهول، عندما رأى (فداء) تقف خلف الجدار الذي انشق، وهي تغمغم في أسف:

- كنا نتمنى ألا تلاحظ هذا.

تراجع حتى التصق بمنضدة الكمبيوتر، وهو يغمغم بكل ذعره وذهوله:

- كنتم؟!.. ومن أنتم؟!..

بدت رقيقة مشفقة، وهي تجيب:

- نحن قوم، نحيا في واحد من تلك المجموعات النجمية، التي تبعد عن الأرض ستمائة سنة ضوئية تقريبًا.

فغر فاه ذهولا، ولكنها تابعت مشفقة:

- كنا نراقب أرضك منذ آلاف السنين من زمنكم، وندرس إمكانيات الاتصال، بين حضارتنا وحضارتكم.. إلا أن حضارتكم بدت لنا وحشية، بكل ما تبتكره من وسائل الدمار الشامل، وكل ما يشتعل فيها من حروب وصراعات وتطرفات عرقية وعقائدية.

بدأ يلهث، وكأنه يعدو بكل قوته، وهي تواصل:

- وعندما قررنا عدم الاتصال بحضارتكم، حفاظا على حضارتنا، توصلت أنت إلى إثبات نظرية الفضاء المنطوي، مما هدد بوصول حضارتكم إلينا.

غمغم في ذعر:

- هل اختطفتموني لقتلى؟!

تطلعت إليه في إشفاق واضح، قبل أن تجيب:

- بل أحضرنا (حسن) إلى هنا؛ لحماية حضارتنا.

غمغم في اضطراب عصبي:

- (حسن).. لماذا تستخدمين أسمي، بدلًا من الإشارة إلى مباشرة؟!

صمتت لحظات، ثم أجابت:

- لأنك لست (حسن).

اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق فيها بكل ذهول الدنيا، فخفضت عينيها، وهي تقول:

- وأنا لست (فداء)، التي عرفها (حسن).

اختفت الكلمات في حلقه لحظات، قبل أن يهتف في عصبية؛

- أنتِ كاذبة.

قالت في أسى:

- ليتني كنت كذلك.. ولكن كلانا لسنا سوى نسخ من أصولنا.

غمغم في ذعر ذاهل:

- أصولنا؟

مالت برأسها نحوه، قائلة في إشفاق:

- كلانا النسخة السابعة والثلاثين، من (حسن) و(فداء)..

صرخ في انهيار مكررًا:

- أنتِ كاذبة.

تابعت، وكأنها لم تسمعه:

- لهذا شعرت أنك نمت ألف عام.. لأن الخلايا الأساسية، التي تم استنساخك منها، عمرها ألف عام.

اتسعت عيناه في رعب شديد، دون أن ينبس ببنت شفة، وهي تواصل - ولهذا شعرت بكل العلوم، المختزنة في الخلايا الأساسية، تنساب إلى عقلك..

ثم أشارت بيدها إلى ما حولها، مكملة:

- هذه الحجرة صنعناها نسخة طبق الأصل من حجرتك.. والعجيب أنك أول نسخة، تنتبه إلى ذلك المنبه الرقمي.

غمغم في انهيار:

- نسخة.

ثم تساءل، في صوت باك:

- ولماذا تحتفظون بي؟!.. لماذا لم ينته الأمر بموت أصلي؟!

أجابته في اهتمام:

- لأنك الأخير.

رفع عينيه إليها، مغمغمًا:

- الأخير في ماذا؟!

قالت بكل الإشفاق:

- ما توقعناه صار حقيقة، منذ ألف عام أرضى.. الحرب العالمية الثالثة اندلعت، وتسببت في تدمير الأرض، وفناء كل كائن حيّ عليها.

ثم أشارت إليه، مضيفة:

- وبقيت أنت.. آخر البشر.

شعر بمسئولية هائلة تلقى على عاتقه، وهو ينهار جالسا على مقعد الكمبيوتر..

لم يعد لكل ما درسه فائدة للبشر..

هذا لأنه لم يعد هناك بشر..

و لأنه الأخير..

آخر البشر..

جميعهم.

(تمت بحمد الله)

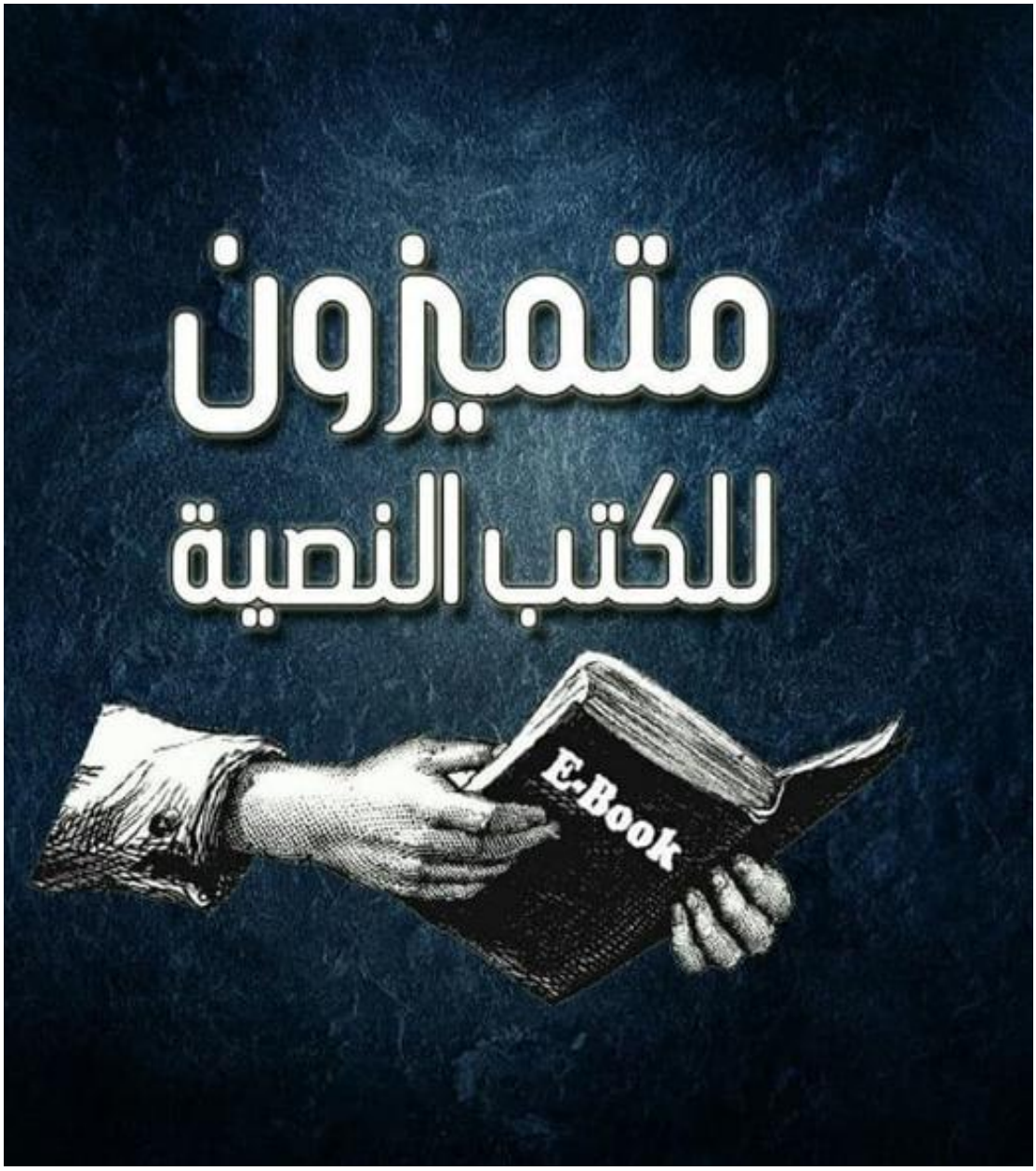

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس:

مجنون..

حلم..

دبيب..

ومن الحب..

أمل..

عين..

المسخوط..

بيت العيلة..

قلب حبيبي..

أشباح..

بالسيف..

جن..

في القبر..

الوشم..

القاتل..

مركب صيد..

الظلام..

السفاح..

آراكنوفوبيا..
البعثة..
الشيخ جاد..
السجين..
مصيف الأحلام..
استجواب...
اللعنة!..
الأخير..
الفهرس: